السلسلة السياقية القرآنية

(٣)

حجية الدلالة السياقية في التفسير

الإحالات السياقية والتشابه السياقي ودلالة الرواية

تنسيق وتعليق

عبد الوهاب رشيد صالح أبو صفية

دار عمار

حجية الدلالة السياقية

في التفسير

الإحالات السياقية والتشابه السياقي ودلالة الرواية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٠/٨/٣٠٧٨)

٢٢٢.٣

ابو صفية، عبد الوهاب رشيد

حجية الدلالة السياقية في التفسير/تحقيق عبد الوهاب رشيد ابو صفية .- عمان : دار عمار للنشر والتوزيع ، ٢٠١٠ .

( )ص. (السلسلة السياقية؛ ٣)

ر.إ.: (٣٠٧٨ / ٨ / ٢٠١٠).

الواصفات : / التفاسير // تفاسير القرآن // القرآن /

- أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
- يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى .

دار عمار للنشر والتوزيع

عمان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمان ١١١٩٢ الأردن
E-mail: dar_ammar@hotmail.com

تمهيـد

عنوان جديد ينبئ عن موضوع جديد لم أجد من طرق بابه في الحاضر من العصور والتليد، وهو لذلك ناءٍ بأسلوبه ومحتواه عن التبعية والتقليد، وهو نوع من التفسير القرآني للقرآن، بل هو أوضح وأوثق طرق التفسير، لعدم خضوعه لأيّ اجتهاد سوى البحث عن مواضع الإحالة لمعرفة المُحالِ من الآيات، والمحالِ عليه، فإذا أنتَ عرفتَ أنّ الإحالة هي من الله مباشرة، دون تدخل لأيّ جهد بشري إلاّ الاجتهاد في تحري مواضعها من القرآن الكريم، عرفتَ بذلك أنّه أوضح وأوثق طرق التفسير، وهو مع هذا وذاك دليل قاطع على أنّ القرآن تنزيل من ربّ العالمين.

وذلك من جهات عدة:

١) ـ لكون القرآن نزل مُفرّقًا وفي حوالي ثلاث وعشرين سنة.

٢) ـ لكونه نزل في عهدين مختلفين كل الاختلاف:

ـ **العهد المكي**؛ حيث صفوة الوجود العربي، وحيث العراقة في الوثنية، وحيث الاهتمام اللغوي في أسمى صوره، وحيثُ النزعةُ القبلية المتجذرة والنخوة الجاهلية المسيطرة.

ـ **والعهد المدني**؛ الجامع لشتّى التناقضات العنصرية والثقافية، وحيث الخائفون والمتشككون والمتربصون والترقُّب الحذر للدعوة الوافدة من بلد آخر... إلى آخر هذه المظاهر الجديدة.

٣) ـ أمية المُنزَّل عليه القرآن.

٤) ـ نزول القرآن عليه في صور متنوعة: آية واحدة، أو آيات، أو سورة صغيرة، أو متوسطة، أو طويلة، مرتبطًا بعضها بأسباب، وأخرى مُبتدَأة وغير مرتبطة، ومرتبطًا بعضها بظروف وأحداث وأخرى غير مرتبطة، متنوعة الموضوعات بين عقيدة وعبادة وتنظيم علاقة، ومعالجة موقف أو مشكلة، وسَوْقِ عِبرة... إلخ هذه الموضوعات وبأساليب متنوعة كذلك.

٥) ـ كون المنزَّل عليه مكشوف الحال في حِلّه وتَرْحالِه وفي سائر أحواله لا يجهل المخاطبون الأولون بالقرآن شيئًا من أمره (في ليل أو نهار)، علاوة على صدقه وأمانته المشهود له بهما من الجميع، وعلاوة على علمهم بعدم مشاركته في نشاطاتهم اللغوية أو التجارية ـ والمهنية (إلاّ نادرًا)، فهذا وذاك من الأسباب؛ يستحيل معه ـ في حكم المنطق ومألوف العقل أن تكون هذه الإحالات القرآنية الموزعة على مواضع مختلفة في كتاب بحجم القرآن الكريم وتنوع موضوعاته وأساليبه، صادرة عن بشرٍ؛ بل عن مخلوق كائنًا من كان؛ ولا يعقل أن يكون منزّلاً إلاّ ممن عِلْمُه محيطٌ بعظائم الأمور ودقائقها، أو كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦].

وقد قدمته في الأهمية والدلالة على بقية أدلة الحجيّة للتفسير السياقي، باعتبار أنّه من القرآن مباشرة وبدون أية إضافة، ويليه التكامل السياقي في قوة ووضوح دلالته على الحجية[1]؛ وهو أيضًا دليل قرآني، ثم التشابه السياقي؛ وهو أيضًا دليل قرآني، ثم بعد ذلك تأتي الرواية؛ وهي تشمل ما أُثِرَ عن النبي ﷺ من احتجاجات سياقية، ثم بعد

(١) أفردت التكامل السياقي بكتاب خاص لكبر حجمه من جهة، ولميزته تلك من جهة أخرى؛ حيث يأتي بعد الإحالات في قوة دلالته.

ذلك ما أُثِرَ عن خير القرون، ثم ما بعد ذلك إلى عصرنا هذا؛ والله الموفّق لإتمامه ضمن هذه السلسلة السياقية المباركة.

***

المقدمة

لا أبالغ إذا قلت إن هذا الموضوع من السلسلة السياقية هو أهم حلقاتها على الإطلاق، إذ هو مفتاح المشروعية لهذه السلسلة، وعليه تنبني سائر الحلقات، ومنه تأخذ أهميتها، ولولاه ما حفلنا نحن ولا غيرنا من قرائنا بهذا الموضوع أصلاً؛ لأنّه يغدو عملاً اجتهاديًّا محضًا محفوفًا بالأخطار، وإضافة كمية بدون مبرر تلحق بسائر الأعمال التي رُزئت بها أمّتنا في تاريخها الطويل منذ نزول القرآن الكريم، وبدء الإنسان الخطّاء في التهويم حول معانيه التي أراد الله سبحانه أن يُسعد بها هذا الإنسان، وأن تكون منارةً تَهديه وهو يَمْخُر عُبابَ خلافته: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، لكي يثبت للملائكة مرّة أخرى أنّه جدير بهذه المسؤولية بعد النجاح الأوّل في الملأ الأعلى ﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ... ﴾[1].

ومعلوم بداهةً أنّ كل عمل مرتبط بالدين، وبخاصة إذا كان هذا الارتباط بأصل من أصوله، بل بالأصل الأول والأعظم «القرآن الكريم» الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا بد أن يُبحث فيه أوّلاً عن أدلة مشروعيّته، وإلاّ صار عبئًا ثقيلاً وعَبثاً هزيلاً، ولو سُلك هذا المسلك من قِبَل جميع الحائمين حول هذا الحِمى المقدّس لَسَلِمَ المحصولُ من الشوائب الحائلة دون الإفادة منه، ولما وجدنا هذا الكم الهائل من التفاسير والأعمال المتصلة بعلوم القرآن الكريم مما لا يستحق حتى مجرّد قراءته، بل إنّ

(١) إشارة إلى الآية ٣٣ من سورة البقرة.

قراءته تهدم ولا تخدم، وتنشئ ثقافات مشتتة متناقضة، وما يتبع ذلك من تفكيك لوحدة الأمة المقدسة، كما يُشاهد الآن من أحوال أمّتنا.

هذه الحجّية تجيء ولا بد **أوّلاً من القرآن نفسه**؛ الذي هو الأصل في الاحتجاج والاستدلال لمشروعية أيّ عمل بالإضافة إلى الحديث النبوي الشريف اللذين يُغنيان عن تَطلُّبِ المزيد من أدلة الاحتجاج من خارجهما، مع أنّ ذلك لا يمنع من الاستئناس بأقوال وأعمال السلف الصالح في عصر الصحابة رضي الله عنهم، وما بعده ممّا يؤكّد ويوضّح عمليًّا هذه المشروعية، من حيث أنّها[1] ما صدرت عنهم إلاّ لإيمانهم بكونها مُوافقةً لما في القرآن والسنة، وذلك قبل أن تتلوّث الأفكار الأصيلة بالثقافة الدخيلة.

أمّا كيفية الاستدلال بالقرآن الكريم على حجيّة وصحة هذه المنهجية التفسيرية للقرآن الكريم فإننا نجدها في «الإحالات القرآنية»؛ حيث إنّ إحالة القرآن في موضع على موضع آخر منه تتضمّن دلالة قاطعة على هذه الحجية، فمثلاً في قوله تعالى من سورة النحل: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٨]، كيف لنا أن نفهم هذا المحرّم (من قبل)، وأن نعرف مكانه إلاّ بالبحث عنه في مواضع سبقت من القرآن، وبعد البحث نجد ذلك واضحًا في آية الأنعام رقم ١٤٦: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

وبهذا يكون القرآن نفسه هو الذي تولّى عملية التفسير، وأمدّنا في الوقت نفسه

---

(١) فائدة: يجوز فتح همزة أن بعد حيث، «الكواكب الدُّرية» ج١ ص١٢٠، كما يجوز كسرها.

بالحجّية على منهجنا في التفسير بدلالة السياق، وبخاصة السياق القرآني العام، وهنا أذكر لك ما في آية ١٧ من سورة هود، وهو قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود: ١٧]؛ أي: من القرآن نفسه.

ولا تنس أنّ كل إحالة نوردها هنا تشكل بمفردها دليلاً مستقلاً على هذه الحجّية إلى جانب دلالة الإحالات مجتمعة، ما ذكرنا منها وما لم نهتد إليه مما قد يجده غيرنا. ولا تنس أيضًا أنّ هذا الأسلوب له مزايا عدّة أهمّها: الفائدة التربوية بإعمال الذهن في البحث عمّا يحال عليه مما يكمّله أو يوضّحه أو يفصله... إلى غيرها من وجوه البيان. وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤]، ومن قوله: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣]، ثمّ إنّ قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] شاملٌ لهذا المسلك الذي سلكته في ترتيب هذه الدلالات على حجيّة السياق؛ وذلك لأنّ قوله: (تنازعتم) يشمل الاختلاف في تفسير آية، ويؤيّد ذلك قوله فيها: (في شيء)؛ فنحن قد اعتمدنا في الاختلاف على القرآن الشامل للإحالات والتكامل والتشابه. ثم بعد ذلك السنة، وأما ما سواهما فإنّما اعتبرناه لكونه راجعًا إليهما بوجه من الوجوه.

ويأتي بعد الإحالة في وضوح الدلالة على الحجّية موضوع التكامل السياقي، بمعنى؛ أننّا نجد في موضع من القرآن عبارة تحمل معنى، ونجد أنّ هذا المعنى لا تكتمل جوانبه، أو لا يتّضح فهمه كاملاً إلاّ بضمِّهِ إلى ما في موضعٍ آخر ممّا يتضمّن المعنى نفسه، ومن أمثلة ذلك: آيات تحريم الخمر، وتحريم الربا والزنا، وتشريع القتال... وغيرها من الأمور التشريعية التي لم ترد أحكامها في موضع واحد من القرآن، وما كان لها أن ترد وذلك بُغيةَ مراعاة التدرُّجِ والمناسبات والمقتضيات، إلى غير

ذلك من الحِكَم «ممّا يرتبط بالهداية أو الإعجاز».

ثمّ يأتي بعد موضوع التكامل في هذا الشأن التشابه الموجود بين آيتين أو مقطعين، ويكون في أحد الموضعين أو المواضع ما يوضّح مبهمًا في موضع آخر، أو يُفَصِّلُ مُجْمَلاً، أو غيرها من وجوه البيان، كما سيتّضح من الأمثلة عند عرض مبحث التشابه.

ولا تنس أنّ الروابط والمناسبات ومن ذلك: الارتباطات الرقمية[1]؛ لها دور هام في إيضاح هذه الحجّية، وفي الختام نذكر أدلّة من السنة ثمّ من أقوال الصحابة، ثمّ من أقوال علماء الأمّة في شتى العصور.

ولنبدأ بالإحالات القرآنية:

(١) أفردت هذا الموضوع بكتاب مستقلّ، بعنوان «من جديد العطاء القرآني أو وجه إعجازي جديد في القرآن» ، والذي يمثّل الحلقة الثانية في هذه السلسلة المباركة.

الفصل الأول

«الإحالات القرآنية السياقية»

١ ـ قال الله تعالى في الآية (٣٠) من سورة الحج: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي ما هو مذكور في سورة الأنعام والمائدة وسائر السور التي نصّت على تحريم بعض المحرّمات[1]، وكذا ما في الآية الأولى من سورة المائدة من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١]، فقد ذكر الشربيني الإجماع على أن المراد بها هو ما في سورة البقرة ... الخ[2].

***

٢ ـ في سورة الزمر آية (٥٠): ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...﴾؛ هذا محال على ما في آية (٤٩) وآية (٧٨) من سورة القصص: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ...﴾، والقائل هو قارون كما عُلم من سورة القصص، كما يجوز أن يكون في الأمم الماضية آخرون ـ غير قارون ـ قائلون مثل ذلك[2].

***

(١) فتّش عنها بنفسك، ولا بأس أن تستعين بتفسير أضواء البيان (ج١ / ص١١)، وتفسير ابن كثير.

(٢) انظر: السراج المنير للخطيب الشربيني (ج٣ / ص٢٦٧) ـ (ج٣/ ص٤٥٣).

٣ ـ في سورة النساء آية (١٤٠): ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ... ﴾، فأين نزل هذا من الكتاب؟ إنْ كنتَ حافظًا ستعرفُ ذلك، وإلاّ ففتّش عنه في السور المكيّة فستجده؛ وهذا هو الغالب، إذ ربما تكون الإحالة من سورة مدنية على أخرى مدنية نازلة قبلها، وقد وجدتُ ذلك في آيتي (٦٨، و٦٩) من سورة الأنعام: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ... ﴾ إلخ الآية (٦٨)، وتأتي آية (٦٩) مُكَمِّلة للحكم: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم ﴾؛ أي: من حساب الخائفين ﴿ مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾؛ أي: لعلّ الذكرى تفيدهم في تركِ الخوضِ والإقلاع عنه.

فأنت ترى أنّ آية الأنعام لم تبيّن كيفية الخوض في آيات الله، فجاءت آية النساء موضّحة طرفًا من هذا الخوض وهو الكفر والاستهزاء بها، ثمّ إنّ آية الأنعام وجّهت الخطاب للنبيّ ﷺ [1] بوجوب الإعراض عن الخائفين حتى يُقلِعُوا عن ذلك، أمّا آية النساء فقد نهت عن الاستمرار في الجلوس معهم حتى ينتهوا، كما بيّنت أنّهم إذا استمرّوا في الجلوس معهم رغم استمرار الخوض فإنّهم يشاركونهم في الإثم، ولكن آية الأنعام (٦٩) أضافت حكمين مهمّين جدًّا؛ **الأوّل**: حكم حالة النسيان، فهنا يرتفع الإثم أو لا يحصل. **والثاني**: لا إثم على مَنْ لا يشارك في الخوض، ولكن الأمر بالاعتزال قُصدَ به التذكير للخائفين لعلّهم يقلعون عنه، أو لعلّهم لا يرجعون إليه مرّة أخرى حذرًا من مثل هذه المقاطعة، وبخاصة حين تكون العلاقة قويّة بين الخائضين والمعرضين.

---

(١) لا تنس أنّ خطاب النبيّ ﷺ هو خطاب لأمّته إلاّ إذا قام دليل على تخصيصه بشيء.

ويبقى هنا إشكال؛ وهو أنّ آية النساء نصّت على وجود مشاركة في الإثم عند عدم الاعتزال بخلاف آية الأنعام: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٦٩]، ولعلّ الخروج من ذلك: أن نعلم أنّ الإثم المنصوص عليه في النساء محمول على الاستمرار في الجلوس رغم الاستمرار في الخوض بعد النهي عنه، وهكذا نجد تكاملاً توضيحيًّا بين السياقين من خلال هذه الإحالة[1].

***

٤ ـ في آية الأنعام (١٤٨): ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

وفي آية (٣٥) من سورة النحل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

وهنا نريدك أن تتذكّر أنّ سورة الأنعام قبل سورة النحل ترتيبًا ـ أي في ترتيب المصحف ـ بل ونزولاً؛ على ما ذكر في مراجع ذكرت هذا الترتيب، مع أنّها ليست قطعية، لوجود بعض الاختلافات في ذلك.

ثم لاحظ أنّ في الجمع بين الآيتين إعجازاً إخباريًّا إذ إنّ آية الأنعام أخبرت عما سيقع، وآية النحل عما وقع: (وقال...)، ثمّ إنّ آية النحل بيّنت أنّ الشرك هو عبادتهم من دون الله ـ بأي نوع من أنواع العبادة ـ ولكن في آية الأنعام سؤال تَحْسُنُ الإجابةُ عليه لتمام الفائدة وهو: ما المقصود من تكذيبهم؟ الجواب: إنّهم لم يعبدوا أو يشركوا أو يحرموا لأنّ الله تعالى أذن بذلك أو شاءه، وذلك لأنّهم لا يعلمون هذه المشيئة إذ هي

---

(١) ننبّه هنا إلى وجود ارتباط بين الإحالات والتكامل والتشابه قد يظهر وقد لا يظهر.

غيب، ثم هم يحتجّون بالمشيئة القدرية وهذا الاحتجاج لا ينفعهم لأنّ الحساب والعقاب إنّما هو على مخالفة ما تعلّقت به الإرادة الشرعية، وإشراكهم وتحريمهم ما لم يُحرِّمه الله تعالى ليس ممّا أَذِنَ الله به، فهم كذَبوا على الله تعالى وكذّبوا بشرعه؛ لأنّهم كذّبوا بالحساب واليوم الآخر أصلاً.

***

٥ ـ في آية (٦٠) من سورة الإسراء: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ ألست ترى أنّ هذه الصيغة تتضمّن دعوة صريحة للبحث في القرآن عن هذه الشجرة، وكيف تمّ لعنها فيه؟ وبعد البحث نجد ذلك في سورة الصافات مفصّلاً: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ إلخ الآيات (٦٢ ـ ٦٥).

ونرى أنّ اللعن هنا معناه الذم، وما ذكر من صفاتها القبيحة، ومما يؤيّد أنّها شجرة الزقوم ربطها بالفتنة في الموضعين: في الإسراء آية (٦٠)، ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾؛ فهي معطوفة على الرؤيا، فتكون كل منهما فتنة، وصُرّح بذلك في الصافات: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ الآية (٦٣).

وقد رجعت إلى تفسير القرطبي فوجدته يفسرها بذلك، ولكنّه بعد ذلك نقل عن ابن عبّاس تفسيرها ببني أميّة!! ثم قال: وهذا القول ضعيف محدث، والسورة مكيّة[1].

***

(١) تفسير القرطبي (ج١٠ / ص١٨٦).

٦ ـ في آية (١٣٧) من سورة الأعراف: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ...﴾؛ فيها إحالة على آية (٥) من سورة القصص: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ...﴾؛ حيث إنّ الكلمة الحسنى هي هنا الوعد بما أخبر عنه في سورة القصص من نقلهم من حال الذل والاستضعاف إلى التمكين وجعلهم أئمّة بعد إهلاك أعدائهم ﴿فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾[1].

***

٧ ـ قال تعالى في سورة التوبة آية (١١٤): ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ...﴾، أين حصل هذا الاستغفار؟ الجواب: في سورة الشعراء إشارة إلى الآية (٨٦): ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، وفي سورة إبراهيم الآية (٤١): ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

ثم أين حصل الوعد بذلك؟ الجواب: تجد ذلك في آية (٤٧) من سورة مريم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾. وفي سورة الممتحنة ما يشبه في المعنى ما في سورة التوبة، من أنّه لا ولاءَ بين مؤمنٍ وكافر حين يُظهر الأخير كفره، فلا بد عندئذ من التبرّؤ منه مهما كانت درجة القرابة: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ...﴾.

ثم جاء القول الفصل في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ

---

(١) انظر: الأضواء (ج١ / ص١٠)، والقرطبي (ج٧ / ص٢٧٢ وج٦ / ص٤٥١)

ٱلْجَحِيمِ ﴾ الآية (١١٣) وذلك بموتهم على الكفر.

***

٨ ـ قال تعالى في آية (٣٩) من سورة المعارج: ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾، أو ليس قوله ﴿ مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ محيلاً لنا بصراحة على كل ما ورد في القرآن الكريم ممّا يدور حول أطوار خلق الإنسان[1]؟

***

٩ ـ في سورة البقرة آية (١٠٨): ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ... ﴾؛ قوله: ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ إحالة على ما في آية (٥٥) من هذه السورة: ﴿ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ... ﴾، وما في آية (٦١): ﴿ ... فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ... ﴾، وما في آية (١٣٨) من سورة الأعراف: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ... ﴾، وما في آية (١٥٣) من سورة النساء: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ... ﴾.

وفي تفسير ابن كثير: السؤال هنا يعمّ المؤمنين والكافرين؛ فإنّه عليه السلام رسول الله إلى الجميع كما قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ... ﴾، فقد روي عن ابن عبّاس أن رافع بن حريملة ـ من اليهود ـ ووهب بن زيد منهم جاءا إلى النبيّ ﷺ، فقالا: يا محمد ائتنا بكتاب تنزّله علينا من السماء نقرؤه... إلخ. فأنزل الله في قولهم: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ ... ﴾، ثم قال ابن كثير معقّبًا على ما روي من أسباب نزولها: والمراد أنّ الله ذمّ من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنّت والاقتراح،

(١) سيرد تفصيل هذه الفقرة في مبحث "التكامل السياقي"، والذي سيخصص له كتاب مستقل.

كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنّتاً وعناداً وتكذيباً.

ولقد عقّب صاحب كتاب "البرهان في نظام القرآن" (ص١٧٣) على هذه الروايات في سبب نزول الآية بقوله: يمكن أن يقال إنّ الآية تشمل حالات أخرى لم تذكرها الروايات، ثم قال: وهذا ممّا لا بأس به، وإلاّ فالسبب الحقيقي لنزول الآية كما يظهر من التأمّل في سياقها هو أنّ بعض ضعفاء المسلمين قد انخدعوا بطعن أهل الكتاب في أمر النسخ وطفقوا يسألون الرسول عنه كما سأل اليهود نبيّهم موسى عن لون البقرة وسنّها ونوعيّتها مثلاً، ثم قال: ولم يكن الدافع إلى هذا السؤال الحرص على الاستفادة أو طلب القناعة وإنّما قلّة الثقة بالرسول والشك فيما جاء به، وعلى هذا كان هذا السؤال أقرب إلى الكفر؛ يدلّ على ذلك في سياق الآية: ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾، والظاهر أنّ صاحب «البرهان» أخذ ذلك من التعليق النهائي الذي ذكرتُه لكَ عن ابن كثير آنفًا.

***

١٠ ـ قال تعالى في سورة البقرة آية (٦٥): ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ... ﴾؛ فيها إحالة على ما في آية الأعراف (١٦٣): ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ... ﴾.

***

١١ ـ قال تعالى في سورة النساء آية (١٥٨): ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ... ﴾؛ وهذا القول مردود على ما في آل عمران التي قبل النساء نزولاً وترتيبًا، وهي آية (٥٥): ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾، ثمّ على ما في المائدة آية (١١٧): ﴿ فَلَمَّا

تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾. ويمكن بسهولة أن نستنتج وجود محذوف في آية المائدة أخذًا من آية آل عمران بحيث يصير التعبير هكذا: فلما توفّيتني ورفعتني كنت أنت الرقيب عليهم.

* * *

١٢ ـ قوله تعالى في سورة النساء آية (١٥٩): ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾؛ يمكن حَمْلُ ما فيها على آية الزخرف (٦١): ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ التي هي في شأن عيسى عليه السلام قطعًا، ممّا يقوّي كون الضمير في آية النساء راجع إلى عيسى، كما أكّد ذلك أبو هريرة رضي الله عنه، كما سيُذكر في موضع آخر بتفصيل أكثر.

* * *

١٣ ـ قوله تعالى في سورة النساء آية (١٦٠): ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ... ﴾ ؛ تجد بعد البحث ما في هذه الآية مُحالاً على ما في آية الأنعام (١٤٦): ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ بعد قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ... ﴾ إلخ الآية.

* * *

١٤/ ١٥ ـ في سورة الشورى آية (١١): ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ... ﴾، وفي الزمر التي قبلها في ترتيب المصحف وفي النزول كما ذُكر: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ... ﴾ الآية (٦)، ثم ما في الزمر بدوره مُحالٌ على ما في سورة الأنعام لمعرفة تفاصيل هذه الأزواج الثمانية في الآيتين (١٤٣ ـ ١٤٤).

وهنا نذكرك مع الإحالة: بالترتيب الطردي بين هذه البيانات:

أوّلاً: من الأنعام أزواجًا.

وثانيًا: بيان أنّها ثمانية أزواج.

وثالثاً: تفصيل هذه الأزواج الثمانية.

وهذا دليل واضح على أنّ السياق القرآني العام مقصود عندما نتعرّض لتفسير آية، والمعنى السياقي الخاص موجود هنا وهو «**التسلسل في المعنى**»[1] مهما تباعدت المسافة بين الحلقات.

***

١٦ ـ قوله تعالى في سورة الأنعام آية (١٤٥): ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ...﴾ إلخ، وفي آيتي (١٤٣ ـ ١٤٤) قبل هذه الآية: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ...﴾ إلخ الآيات، وجاء فيهما: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ...﴾ إبطالٌ لما حرّمه المشركون بدليل السبر والتقسيم، ومؤدّى هذا الدليل: أنّه إذا كانت علّة التحريم: **الذكورية**؛ فقد بطل تحريم الإناث وكذا العكس. أمّا إذا كانت العلّة: **اشتمال الأرحام**؛ فهي تعمّ الجميع، فبطل تحريمكم البعض دون البعض الآخر، ممّا يدلّ على أنّ التحريم والتحليل عندكم إنّما هو افتراء

---

(١) ذكرتُ ذلك إشارة إلى غفلة صاحب نظرية السياق القرآني عن السياق القرآني العام؛ حيث اقتصر في ذكر أنواعه على سياق الآية والمقطع والسورة، ولم يتعرّض للسياق القرآني العام، مع أنّني قد ذكرت ذلك في الجزء الأول من دلالة السياق، وهو لا شكّ قد اطّلع عليه، فعدم ذكره نوعًا من أنواع السياق يدلّ على عدم تصوّره كنوع أو جزء من مفهوم السياق، مما يحكم على نظريّته بالسقوط كخيمة أقيمت بدون عمودها الأوسط الأكبر.

على الله سبحانه[1]. كما أشير إلى هذا المعنى في سورة النحل المكيّة أيضًا وهي آية (١١٦): ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ... ﴾ ؛ وذلك بعد بيان انحصار المحرّمات في المذكورات الأربع في آية (١١٥)، والتي تتطابق مع آية الأنعام.

وهنا نذكّر بقضيّة مهمة أثارت اختلافًا كبيرًا حول آية الأنعام هذه، وهي وجود **محرّمات أخرى** في القرآن والسنة، وهما ممّا أُوحيَ إليه ﷺ، فكيف يقال: قل لا أجد فيما أوحي إليّ...؟ **الجواب**: إنّ هذه الأمور لم تكن قد حُرّمت بعد لأنّ التحريم حصل بعد الهجرة، وهذه الآية مع آية النحل نزلتا قبل الهجرة.

وأمّا الآيات المشابهة ـ في صيغة الحصر ـ الواردة في سور مدنية (البقرة والمائدة) فإنّني أرى أنّ المراد بالحصر فيها: نفي ما حرّمه المشركون من عند أنفسهم يشير إلى ذلك الذي فهمته: ما ذُكر بعد آية المائدة (١٠٣)، وأنت خبير بأنّ آية المائدة بعد البقرة؛ فالجواب عنها هو في الوقت نفسه جواب عن آية البقرة، والمذكور هو: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ ... ﴾ وهي مرتبطة بآية الأنعام ارتباطًا وثيقًا، حيث إنّ الأنثيين المذكورين في سورة الأنعام هما البحيرة والوصيلة، والذكرين هما السائبة والحام، ومن جهة أخرى فإنّ آية المائدة خُتمت بما ختمت به آيات الأنعام: ﴿ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾. أمّا آية الأنعام فختمت بقوله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ... ﴾.

---

(١) لاحظ كيف ساهم مفهوم من مفاهيم علم أصول الفقه ـ وهو دليل السبر والتقسيم ـ في توضيح المراد من الآية، وبدونه تبقى الآية غامضة، وهذا رَدٌّ على تشكيك صاحب نظرية السياق القرآني في أهميّة هذا العلم كما سأبيّنه في الرد عليه «في كتاب أعمال سياقية غير منضبطة ج٦ من هذه السلسلة السياقية».

وخلاصة القول في الرد والتوفيق أنَّ الحصر في الآيات أريد بها بيان أن ما حرّمه المشركون غير وارد في الوحي، وهو المراد بدلالة السياق من قوله: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ... ﴾ إلخ[1].

ومع ذلك فإنّه يمكن أن نجد في ظاهر الحصر في الآيات الأربع، ما يصلح مُتَمسَّكًا لمن حصرَ التحريمَ فيما ذكر فيها من السلف رضي الله عنهم كما ورد في روايات عدة.

***

١٧ ـ في سورة النساء آية (١٥٣): ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ... ﴾ ما في هذه الآية مُحالٌ على ما في آية (٥٥) من سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾.

***

١٨ ـ في سورة الزمر آية (٦٥): ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، فيها إحالةٌ على ما في قوله تعالى عن الأنبياء في سورة الأنعام النازلة قبل الزمر على ما ذُكر في الآية (٨٨): ﴿ ... وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، وإن رجعتَ إلى السياق تجد أن الضمير يعود على الأنبياء وقد ذكر منهم قبل هذه الآية ١٨ نبيًّا في آية (٨٦)، وقد ربط بينهما الشنقيطي وقال: هذا شرط

---

(١) قال الشافعي في «الرسالة» (ج٢ / ص٩٦): يحتمل قول الله (قل لا أجد...) من شيء سئل عنه رسول الله دون غيره، ويحتمل: مما كنتم تأكلون؛ ولكني رجّحت احتمالاً ثالثًا: وهو: ممّا كنتم تحرّمون: مع أنّ الشافعي رجّح الثاني.

والشرط لا يقتضي جواز الوقوع، ومَثَّل لذلك بقوله تعالى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [الزمر: ٤][1]؛ وفي موضع آخر مثّل بقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ﴾ [الزخرف: ٨١][2].

* * *

١٩ ـ قال تعالى في سورة غافر آية (٣٤): ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ... ﴾ فيها إحالة على جميع الآيات التي تتحدث عن بعثة موسى عليه السلام إلى القبط من قوم فرعون، وذلك لأنّ الكلام على لسان القبطي المؤمن برسالة موسى عليه السلام، وفي ذلك يقول ابن كثير: يعني أهل مصر قد بعث الله فيهم رسولاً قبل موسى عليه السلام؛ وهو يوسف عليه السلام ـ وكان عزيز مصر ـ، وكان رسولاً يدعو إلى الله فما أطاعوه تلك الطاعة إلاّ بسبب الوزارة والسلطة الدنيوية، ولهذا قال: ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ... ﴾؛ أي يَئِسْتُم فقلتم طامعين: ﴿ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ [غافر: ٣٤]؛ وذلك لكفرهم وتكذيبهم[3].

* * *

٢٠ ـ قال تعالى في سورة طه آية (٣٧): ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾، وآية (٣٨): ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ... ﴾ في ذلك إحالة على ما

---

(١) الأضواء: (ج٢ / ص٢٠٣).

(٢) سأورد ذلك في موضعه من مبحث "دقة السياق"، حيث اعتبرتُ التمثيل بهذه الآية ممسكًا قويًّا عليه في موقفه عند تفسيره لها وحملته الشديدة على مَنْ قال بشرطيتها!!

(٣) تفسير ابن كثير: (ج٤ / ص٧٩).

ورد في سورة القصص تفصيلاً[1].

* * *

٢١ ـ آية الأنفال الأخيرة: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ... ﴿٧٥﴾﴾، مُحالٌ ما فيها على آياتِ النساء الخاصة بالمواريث على اعتبار أنّ معنى كتاب الله: حُكْمهُ الذي بيّنه في سورة النساء، كما سأبيّن ذلك في قسم التفسير[2].

* * *

٢٢ ـ قال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾، فيها إحالة على ما في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ في سورة المجادلة آية (٢١)، وقد قال القرطبي: وقيل أراد بالكلمة في ﴿سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾؛ قوله عزّ وجلّ ﴿كتب الله ... إلخ﴾[3].

* * *

٢٣ ـ في سورة الأنبياء آية (٧٦): ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ..﴾ نجد فيها إحالة على مواضع دعاء نوح على قومه في القرآن، مثل آية (١٠) من سورة القمر: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾، ومثل آية (٢٦) من سورة نوح: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ وغيرهما من المواضع.

* * *

---

(١) سنعيد ذكر هذه الفقرة في مبحث التكامل السياقي بتفصيل أكثر، وهو الجزء الرابع من هذه السلسلة السياقية.

(٢) السراج المنير: (ج١ / ص٥٨٦)، والسايس: (ج٢ / ص٩٥٢).

(٣) تفسير القرطبي: (ج١٥ / ص١٣٩).

٢٤ ـ في سورة التوبة آية (٤٨): ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ ... ﴾؛ المعنى: أنّهم أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدكِ وكيدِ أصحابك وخذلان دينك مدة طويلة، وذلك أوّل مَقدم النبي ﷺ المدينة، حيث رَمَتْهُ العربُ عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال ابن أُبيّ وأصحابه: هذا أمر قد توجّه، فدخلوا في الإسلام ظاهرًا ثمّ كلّما أَعزَّ اللهُ الإسلامَ وأهله غاظهم ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾[1].

والمعنى إجمالاً: أن المنافقين طلبوا الإفساد وتفريق كلمة المؤمنين وبثّ الإشاعات الكيدية ومالأة أعداء المسلمين من يهود ومشركين عليهم ـ قبل غزوة تبوك ـ وهذا ظاهر في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، مثل الذي في سورة الأحزاب، وفي سورة الحشر، وآل عمران، والأنفال، والبقرة، و«المنافقون» ... وغيرها.

***

٢٥ ـ في سورة النمل الآيتان (٩١ و٩٢): ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ فيهما إحالة على ما في سُورٍ عِدّة، مثل: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾، وهو ﷺ مشمول بهذا الخطاب، وفي الأنعام آية (١٦٣): ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، وفي العنكبوت آية (٨٥): ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾، وفي الكهف آية (٦٩): ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾.

***

(١) تفسير ابن كثير: (ج٢ / ص٣٦١).

٢٦ ـ في سورة الأعراف آية (١٥٧): ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ...﴾ هذه الآية مرتبطة بقوله تعالى في الآيتين (١٦٠ و١٦١) من سورة النساء: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ...﴾؛ وهذا يعني أنّها كانت حلالاً من قبل في شريعتهم، ثمّ حُرّمت بسبب ما ذكر من معاصيهم كما سبق، ثم لما جاء النبي ﷺ نسخ التحريم، وأعادها حلالاً كما كانت.

***

٢٧ ـ قال تعالى في سورة طه آية (٩٣): ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾؛ هذا القول يشير إلى ما ورد في سورة الأعراف آية (١٤٢): من أنّ موسى عليه السلام أمر هارون أخاه بأمر وذلك قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، فالأمر هو أن يصلح ولا يتّبع سبيل المفسدين[1].

***

٢٨ ـ قال تعالى في سورة الدخان آية (٢٨): ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾؛ فيها إحالة على آية الشعراء (٥٩): ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، حيث بيّنت آية الشعراء مَنْ هم هؤلاء القوم.

***

٢٩ ـ قال تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية (٢٢٢) من البقرة، فهل عرفت هذه الحيثية التي غفل عنها كثيرون حتى روي ذلك عن بعض

---

(١) وقد بيّنت في موضع آخر دلالة هذه الآية على أنّ الأمر يفيد الوجوب كما هو عند الجمهور، ولا سيّما عند وجود القرينة الدالة على ذلك وهي هنا إتباع الأمر بالنهي عن اتّباع سبيل المفسدين.

السلف[1]، المحال عليه ما في الآية ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ ﴾؛ أي موضع الحرث وهو القُبُل، ويؤيّد ذلك ما في قوله تعالى: ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ سواء فُسِّرَ ذلك بأنّه الولد، أو الإتيان في القُبل؛ فالنتيجة واحدة وهي المباشرة الشرعية لا تكون إلاّ في القبل؛ حتى إنّه يمكن اعتبار قوله: ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ ﴾ بدلاً من قوله سابقًا: ﴿ فَأْتُوهُنَّ ﴾ بدل بعضٍ من كلّ، وبياناً للمراد من قوله: ﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ لما فيه من الإبهام.

***

٣٠ ـ الآية (١٠٩) من البقرة: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ بيانٌ لانتهاء وقت العفو والصفح، وابتداء مرحلة جديدة في معاملة المعتدين وهي الإذنُ في الدفاع عن أنفسهم، ثم الأمرُ بذلك، ثم تأثيمُ المتخلّفين عن الجهاد، وهذا يشبه ما في آية النساء: ﴿ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾؛ وقد جاء في تفسير ابن كثير مثل هذا القول: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ الآية (١٨٦) من آل عمران، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ فَٱعْفُوا۟ ... ﴾ إلخ، والسدي: إنّها منسوخة بآية: ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة: ٥] وقوله: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ

(١) مع ورود ما يدلّ على رجوع هؤلاء عن آرائهم أو حتى بطلان ما نُسِبَ إليهم.

ٱلْآخِرِ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، فنَسخَ هذا عفوَه عن المشركين. وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة: إنّها منسوخة بآية السيف، ويرشد إلى ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال ابن أبي حاتم ـ وساق السند إلى أسامة بن زيد ـ: إنّه أخبر عن رسول الله ﷺ أنّه قال: كان هو أصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمر الله ويصبرون على الأذى، وكان رسول الله ﷺ يتأوّل من العفو ما أمره الله به حتى أَذِنَ اللهُ فيهم بالقتل... وهذا إسناده صحيح، وله أصلٌ في الصحيحين عن أسامة بن زيد[1].

***

٣١ ـ في سورة آل عمران الآية (١٦٥): ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا ...﴾، والآية (١٤٠): ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ...﴾، والآية: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

كل هذه الآيات تتضمّن الإحالة على ما ورد في سورة الأنفال حول معركة بدر:

١ـ قد أصبتم مثليها؛ وذلك في بدر بقتلِ ٧٠ وأسرِ ٧٠.

٢ـ فقد مسّ القوم قرحٌ مثله؛ وذلك أيضًا في بدر كما قال أبو سفيان : يومٌ بيومِ بدر.

٣ـ ثم جاء التصريح بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وقولُه: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ تذكيرٌ بقوله في الأنفال في آية (٢٦): ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾.

***

(١) تفسير ابن كثير: (ج١ / ص١٥٣).

٣٢/ ٣٣ ـ في آية (٢٥) من سورة التوبة: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ... ﴾ إحالة على مواضع متعدّدة في القرآن الكريم تتضمّن الإخبار بنصر المسلمين كآية آل عمران السابقة: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ... ﴾ آية (١٢٣)، وكالذي ذكر في سورة الحشر عن بني النضير وبني قينقاع[1]، وإذا حُمل ما في آية الحشر (١٥): ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ... ﴾ على مشركي قريش في بدر، فتكون في الآية إحالة على ما ورد في سورة الأنفال بخصوص معركة بدر. وقد جاء في تفسير ابن كثير: قال مجاهد والسدّي ومقاتل بن حيّان: يعني كمثل ما أصاب كفّار قريش يوم بدر، وقال ابن عبّاس: يعني يهود بني قينقاع، وكذا قال قتادة ومحمد بن إسحاق. قال ابن كثير: وهذا القول أشبه[2] بالصواب، فإنّ يهود بني قينقاع كان ﷺ قد أجلاهم قبل هذا. وأنا أرى أنّ هناك شبهًا بين ما حصل في بدر وبين ما حصل في غزوة بني النضير من حصولِ تحالفٍ بين الكفّار وبين الشيطان قبلَ كُلٍّ من الغزوتين، ثم خذل الشيطان حلفاءه في الغزوتين عند بدء القتال واشتداده، ففي الأنفال بهذا الخصوص آية (٤٨): ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

وفي سورة الحشر الآية (١٦): ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وقد جاءت هذه الآية مقترنة بالآية

---

(١) معظم سورة الحشر عن بني النضير، ولقد أشير في ثناياها إلى غزوة بني قينقاع في آية (١٥): ﴿كمثل الذين من قبلهم قريبًا ذاقوا وبال أمرهم...﴾، فقد قيل إنّها تعني المشركين في بدر وقيل بني قينقاع.

(٢) ابن كثير: (ج٤ / ص٣٤٠).

السابقة: ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ مما يتيح لنا ترجيح أنّ المراد بقوله ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ ﴾ هم مشركو قريش في بدر. والله أعلم.

* * *

٣٤ ـ قال تعالى في سورة الزمر آية (٦): ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ ... ﴾ بُيّنت هذه الأطوار أكثر ما بُيّنت في آيتي الحج والمؤمنون ـ في صدر كُلٍّ من السورتين ـ وقال ابن عبّاس رضي الله عنه بخصوص آية نوح: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾؛ آية المؤمنون هي المُبيِّنة لهذه الأطوار[1]. وأنا أقول: آيتا المؤمنون والحج هما المبينتان لآية الزمر ونوح[2].

* * *

٣٥ ـ قال تعالى في سورة يونس الآية (٧٤): ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ... ﴾، والضمير بعده يعود إلى سيّدنا نوح عليه السلام، والذين بينه وبين موسى وهارون عليهما السلام، ذُكِرَ كثير منهم بالترتيب في سورة الأعراف وفي سورة هود وهم: هود، صالح، لوط، شعيب، ثم موسى وهارون.

* * *

٣٦ ـ في سورة إبراهيم آية (٩): ﴿ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾؛ أي بعد قوم نوح وعاد وثمود، وفي آية الإسراء (١٧): ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾، فيهما إحالةٌ على السور المشتملة على ذِكْرِ هذه القرون، وهي كثيرة.

* * *

---

(١) الأضواء: (ج٨ / ص٥٢٦).

(٢) وذكر كثير من المفسّرين ذلك. وانظر السراج (ج٣ / ص٤٣٣).

٣٧ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ...﴾ من آية (٤٠) من سورة طه، فيها إحالة على الآيات (٢٣ ـ ٢٨) من سورة القصص لبيانِ حكايةِ هذه السنين وسبب لُبْثِهِ عليه السلام إيّاها في مدين.

* * *

٣٨ ـ آية (٥١) من سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ...﴾؛ في قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ إحالة على ما في آية (٤٨): ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ...﴾[1].

* * *

٣٩/ ٤٠ ـ في سورة المؤمنون الآية (٣١): ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾؛ إحالة على ما ورد في السور الأخرى، والتي ذكرت قوم عاد بعد قوم نوح، وقد تكرّر ذلك، وبهذا يُعرف الرسول في الآية التي تلي هذه الآية: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[2]، وقوله بعد ذلك: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ آية (٤٢) فيها إحالة على ما ورد في السور الأخرى.

* * *

٤١ ـ في آية ٤٠ من سورة الفرقان: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ

---

(١) وذلك على أحد القولين في تفسير (من قبل).

(٢) المفهوم من السياقات المتشابهة في القرآن الكريم والتي اطَّردَ فيها ترتيب إيراد هؤلاء الأنبياء بعد نوح، وهم هود ثم صالح؛ وعليه يكون هذا الرسول هو صالح عليه السلام، وقوم صالح أخذتهم الصيحة آية (٤٢).

ٱلسَّوْءِ ...﴾ إحالة على ما ورد في بيانها في سور كثيرة منها آية (٧٤) في سورة الحجر، وآية (٨٢) من سورة هود.

* * *

٤٢ ـ الآية (٧٦) من سورة النمل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ هذه الآية تحيل على جميع المواضع التي بيّنت انحرافات بني إسرائيل وتحريفاتهم واختلافاتهم في القرآن ولا سيّما في سورة البقرة والنساء والمائدة والأعراف؛ ففي سورة البقرة آية (١١٣): ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وفي المائدة الآية (١٥): ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ...﴾، وفي آل عمران (١٨١): ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ ...﴾، وفي آية (١٨٣): ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ ...﴾.

وما عليك إلاّ أن تقرأ الآيات بدءًا من آية (٤٠) من سورة البقرة إلى آية (١٥٠) حتى تعلم ما انطوت عليه آية النمل: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

* * *

٤٣ ـ آية الواقعة (٦٢): ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ تحيل على جميع الآيات التي تدلّ على بدء الخلق من طين، مثل سورة الطارق، وسورة العلق،

وآخر سورة القيامة، والمرسلات... إلخ.

***

٤٤ ـ الآية (١٥) من سورة الفتح: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ...﴾، الغالب أنّها محالة على ما في قوله تعالى في سورة التوبة الآية (٨٣): ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا...﴾ إلخ. وإن قيل: إنّ سورة الفتح نازلة قبل سورة التوبة فكيف تكون الإحالة على قول متأخر؟ الجواب: إن الإحالة قد تكون على النازل السابق أو السورة المتقدمة في الترتيب[1].

***

٤٥ ـ الآية (٥٩) من سورة يونس: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا...﴾؛ فيها إحالة على ما في المائدة والأنعام: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ...﴾ إلخ آية المائدة، وقد سبق ذكرها إلى جانب آيات الأنعام (١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤).

***

٤٦ ـ الآية (١٢٤) من سورة النحل: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾؛ محالة على كل ما ورد في موضوع السبت والاعتداء فيه كما في سورة البقرة (٦٥) والأعراف (١٦٣)، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

***

(١) وهناك قول آخر وهو: إنّ الله سبحانه أوحى بذلك إلى نبيّه عند الانصراف من الحديبية، وعلى هذا التأويل لا تظهر الإحالة، وإنّما يكون المقصود هو ما أوحى الله به إلى نبيّه من غير أن تنزل فيه آية.

٤٧ ـ في آية (١٠٢) من سورة المائدة: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ...﴾ إحالة على كل ما اقترحته الأمم السابقة على أنبيائها من المعجزات، وقد روي أنّ المراد بهذا: النهي عن سؤال وقوع الآيات كما سألت قريش: أن يُجري لهم أنهارًا وأن يجعل لهم الصفا ذهبًا وغير ذلك، كما سألت اليهود: أن يُنَزِّلَ عليهم كتابًا من السماء، وكما سألت ثمود صالحًا بشأن الناقة، وكيف كفروا وفَجَروا بعد ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩][1].

***

٤٨/ ٤٩ ـ قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إحالة على جميع صفات المؤمنين الصادقين في القرآن الكريم، ولا سيّما آية (٦٩) من سورة النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾. كما أنّ قول: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ إحالة على جميع مَنْ وُصِفُوا بذلك في القرآن الكريم، ولقد علمتَ أن سورة الفاتحة سمّيت أم الكتاب وهذا الذي ذكرتُ لك من إحالة ما في هذه الجمل الثلاث على ما في القرآن كلّه يؤكّد ويوضّح هذه التسمية ومن هنا تعلم أنّ الضالّين والمغضوب عليهم وإن ذكر أنّ المقصود بهما النصارى واليهود فإنّ هؤلاء هم أشدّ الضالّين ضلالاً، وأشدّ المغضوب عليهم غضبًا، ولكن الوصف ليس قاصرًا عليهم، بل هو شاملٌ لكل من ورد في القرآن بوصفِ الغضبِ والضلال.

***

٥٠ ـ قال تعالى في سورة يس الآية (٧): ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا

---

(١) تفسير ابن كثير: (ج٤ / ص١٠٦).

يُؤْمِنُونَ ﴾، وهناك آيات أخر بنفس هذا اللفظ: حَقَّ القولُ، يحقّ القول، حَقَّتْ عليهم كلمةُ ربك، حقّت عليهم كلمة العذاب... علمًا بأنّ المراد بالقول أو الكلمة التي حقّت عليهم ما في قوله تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ آية (١٣) من سورة السجدة، وما في معناها من سائر السور.

* * *

٥١ ـ قال تعالى في سورة سبأ آية (٢٠): ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ في هذه الآية إحالة على جميع الآيات التي ورد فيها على لسان إبليس، مثل: ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ في سورة الحجر الآية (٣٩)، وما في معناها مثل آية (٨٢) من سورة ص: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، وكذا آيتا الأعراف (١٦، ١٧)، وآيات الإسراء (٦٢ ـ ٦٤).

* * *

٥٢ ـ **إحالة ضمن سورة**: وذلك في آية (٨١) من سورة المؤمنون: ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾؛ فمن هم؟ الجواب: اقرأ الآية (٣٥) من هذه السورة: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾، ثم الآية (٣٦)، ثم (٣٧): ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾.

* * *

٥٣ ـ في سورة الأحزاب آية (٧): ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ ... ﴾ إلخ الآية؛ إحالة على ما في آية (٨١) من آل عمران: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ

لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ﴾؛ أي: عهدي وميثاقي.

* * *

٥٤ ـ في آية (٣٦) من سورة الفرقان: ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾؛ فإذا علمتَ أنّ الضمير في ﴿ ٱذْهَبَآ ﴾ إلى موسى وهارون عليهما السلام، عرفت أنّ المراد بالقوم قومُ فرعون، وعرفت بعد ذلك أنّ في هذا الإبهام إحالة على مواضع كثيرة من القرآن الكريم اكتفى هنا بذكر موقفهم ونتيجته ﴿ فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾.

وهي شبيهة بما في سورة القمر آية (٤١، ٤٢): ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ ولاحظ التكامل السياقي بين آيات القمر والفرقان.

* * *

٥٥ ـ قوله تعالى في سورة القمر (٤١، ٤٢)؛ إحالة على جميع المواضع التي فَصَّلت رسالةَ موسى عليه السلام إلى فرعون وموقفهم من هذه الرسالة، ونتيجة هذا الموقف، وستجد معنى التدمير المبهم المذكور في آية الفرقان، كما تجد المعنى الأكثر إبهامًا في سورة القمر: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾. وسأكتفي بذكر موضعين:

الأوّل: في آية (٢٥) من سورة نوح: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾.

والثاني: ما في الآيات (١٣٦، ١٣٧) من الأعراف: ﴿ ... فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ... ﴾، ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾[1].

* * *

(١) انظر: آيات الدخان (٢٢ ـ ٣١)، والشعراء (٥٧ ـ ٦٦).

٥٦ ـ قوله تعالى في آية (١٢٧) من النساء: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ... ﴾؛ فيها إحالة على ما ورد في أوّل السورة: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾؛ كما بيّنت ذلك السيدة عائشة رضي الله عنها، بل وعلى كل ما ذكر في القرآن من التوصية باليتيم والتحذير من ظلمه وأكل ماله بالباطل. ومن ذلك ما في آية (٢٢٠) من سورة البقرة: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ... ﴾، وإنّما قلت ذلك لأنّ آية (١٢٧) من النساء، شملت الاستفتاء في النساء وفي اليتامى ذكورًا وإناثًا، وذلك بظاهر لفظها.

* * *

٥٧ ـ في سورة الحج الآية (٧٨): ﴿ ... هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا ... ﴾؛ إذا قلنا أنّ الضمير راجع إلى إبراهيم عليه السلام فيمكن حمل ما في الآية على ما ورد في آية (١٢٨) من البقرة: ﴿ ... وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ... ﴾[1].

* * *

٥٨ ـ قال تعالى في سورة العنكبوت آية (٤٠): ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ... ﴾.

في هذه الآية إحالة على مواضع كثيرة من القرآن الكريم، ففي سورة القمر آية (٣٤): ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ... ﴾، وفي آية (٣١) من القمر أيضًا: ﴿ إِنَّآ

---

(١) ذكر هذا النموذج بتفصيل أكثر في مبحث (دقة السياق).

أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ... ﴾؛ قوم صالح، وآية (٦٧) من سورة هود: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾؛ قوم صالح. وفي حق قوم شعيب آية (٩٤) هود: ﴿ ...وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ... ﴾. وفي الآية (٨١) من القصص: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾؛ قارون. وفي سورة نوح الآية (٢٥): ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ ... ﴾، وفي آية (٤٠) من القصص: ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾؛ قوم فرعون. وكذا ما في آية (١٣٦) من الأعراف.

***

٥٩ ـ قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ ... ﴾ إلخ؛ فيه إحالة على ما ورد عن مصير هؤلاء الأقوام في سور أخرى كما في سورة الحاقة مثلاً من آية (٤ ـ ١٠)، وكما في سورة هود، بل إنّ في هذا السؤال دعوة لمراجعة واسعة حيث إنّ أخبار هذه الفئات الثلاث تحتل مساحة واسعة من القرآن الكريم وبخاصة في السور المكية؛ ثمّ إنّ الاقتصار هنا على هؤلاء الأقوام يرجع لسبب واضح، وهو شدة اتّصال المخاطبين بالقرآن في العهد المكي من هؤلاء ـ جغرافيًّا وتاريخيًّا ـ وأعني بصورة خاصة قبيلتي عاد وثمود، ثمّ إنّ وصفهم جميعًا بالطغيان يشير إلى سبب آخر للتذكير بهم وبمصيرهم لكون ذلك باعثًا كبيرًا على أخذ العبرة مما جرى لهم.

***

٦٠ ـ ما في آية (٧٣) / المائدة: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ... ﴾، مُحَالٌ على ما في السورة المجاورة / النساء الآية (١٧١): ﴿ ... وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ... ﴾، ثم لاحظ أنّ بين السياقين تكاملاً؛ إذ إنّ ما في آية النساء صريح في أنّ

المخاطب هم النصارى، ولولا آية النساء هذه لظلّ قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ﴾ مُبْهمًا، أو محتملاً لأكثر من جهة، فقد يُحمل مثلاً على ما في الآية السابقة (٧٢) التي تتحدّث عن النصارى، وقد يُحمل على كفار آخرين؛ مع ضعف هذا الاحتمال في محيط النص القرآني وبيئته العربية التي اشتُهرَ فيها النصارى بهذا القول.

* * *

٦١ ـ في سورة النور الآية (٣٤): ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ ...﴾.

قوله ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فيه إحالة على الأمم الهالكة السابقة، وهي بذلك مثل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ... ﴿١٧﴾﴾[1].

* * *

٦٢ ـ ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ... ﴿٢﴾﴾ [الجن: ١ – ٢]؛ إحالة على ما ذكر في سورة الأحقاف قبل ذلك في ترتيب المصحف آية (٢٩): ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ...﴾ إلخ.

* * *

(١) ويحسن هنا أن نشير إلى وجه الارتباط بين مضمون هذه الآية وبين ما سبقها من السورة فنقول: إنّها تذكير بأوّل آية في السورة (وأنزلنا فيها آيات بينات...)، ولقد كان ما قبلها من الآيات متضمنًا لأحكام شرعية تتعلّق بالمجتمع والأسرة، ثم لمّا أريد الانتقال إلى نوع آخر من الأخبار والتوجيهات جيء بهذا الفاصل، والذي سيتكرر بدوره بعد آية (٤٥)، ترشيحًا للانتقال إلى أحكام وتوجيهات تحذر من النفاق والمنافقين إلى آية (٥٤) وربما آية (٥٧)، ثم بإمكانك ملاحظة تكرار ذلك في نهايات الآيات (٥٨، ٥٩، ٦١).

٦٣ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ... ﴾ الآية (٤٠) الفرقان؛ فيها إحالة على الآيات التي تضمّنت الأخبار بهلاك قوم لوط مثل آية (٨٢) هود: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ... ﴾، وفي الحجر آية (٧٤): ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾، وفي الذاريات (٣٣ / ٣٤): ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

***

٦٤ ـ ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ... ﴾ آية (٣٥) الأحقاف؛ فيها إحالةٌ للنبي ﷺ على ما في آيتي الشورى (١٣): إبراهيم، موسى، عيسى، نوح... عليهم السلام، وآية الأحزاب (٧). وقد ورد عنه ﷺ أنّهم هم المقصودون.

***

٦٥ ـ قال تعالى في سورة النساء (١٦٤): ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ... ﴾ إلخ، ومثلها في غافر (٧٨): ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ... ﴾ فقوله ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ إحالة على ما ورد في الآيات (٨٤ ـ ٨٦) من سورة الأنعام، وغيرها من السور المكية، وعدد الأنبياء المذكورين في آيات الأنعام (١٥) والذين أُضيفوا إليهم في النساء هم إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط[1].

والمشهور أنّ الأنبياء المذكورين في القرآن (٢٥)، وقد ذكرهم ابن كثير: آدم، إدريس، نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف،

---

(١) على اعتبار أنّ الأسباط أنبياء كما هو ظاهر السياق من جهة، كما في قوله: ﴿كما أوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل... والأسباط وعيسى وأيوب...﴾ إلخ. وانظر السراج المنير (ج١ / ص٣١٥).

أيّوب، شعيب، موسى، هارون، يونس، داوود، سليمان، الياس، اليسع، زكريّا، يحيى، عيسى، ذو الكفل، وسيّدنا محمد صلّى الله عليهم وسلم.

هذا وقد ورد أنّ الأنبياء عددهم ١٢٤ ألفًا في روايات عدة لا تخلو كلّها من مقالٍ في أسانيدها، والرسل منهم ٣١٣، وأنّ آدم أوّل الرسل في رواية، وفي رواية أخرى نوح هو أوّل الرسل[1]. وهذا مع ما تفيده السياقات القرآنية المختلفة حول طبيعة الفرق بين الرسول والنبي يجعلني أراجع قناعتي السابقة حول هذا الفرق علمًا بأنني قد غيَّرتها مرارًا في مسيرتي العلمية والتعليمية؛ إذ هناك اصطلاحات في علم الحديث والتفسير والفقه والأصول ليست محَلَّ إجماع بين العلماء، فإذا علم الواحد منا في أوّل عهده بطلب العلم شيئًا مضى عليه حتى يخرج من شرنقة التقليد ويبدأ بمراجعة مسلّماته العلمية السابقة، ومن ذلك الفرق بين المكي والمدني، وبين الحديث والسنة، وحجية الإجماع والفرق بين إجماع الصحابة وإجماع الأمة في مختلف عصورها.

ومن ذلك أيضًا معنى السُّنَّة في مقابل الفَرْض، والسنة في مقابل القرآن، ومن ذلك الفرق بين الرسول والنبي، حتى إنّي اطلعت على كتاب ينكر هذا الفرق، ولا زلت أرى أهل العلم مختلفين في ذلك، والنصوص القرآنية لا تحسم الخلاف في هذا الموضوع، فمنها آيات يُفهم منها وجود فرق مثل: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيّٖ ... ﴾ [الحج: ٥٢] بدلالة العطف، بينما هناك آيات وأحاديث تدلّ على عدم وجود فرق؛ ومن ذلك آية النساء وآيات الأنعام ـ موضوع هذه الفقرة ـ أمّا آية النساء فبعد أن ذكرت مجموعة من الأنبياء وسمّتهم نبيّين، عادت في وسطها وآخرها فوصفتهم بأنّهم رسل مما جعلني أكتشف رأياً جديدًا وهو أنّه يوجد فرق عملاً بالآيات التي تُفرِّقُ بظاهرها، ولكن هذا الفرق مساحته ضيقة بحيث يمكن أن يسمّى النبي

(١) تفسير ابن كثير (ج١ / ص٥٨٥).

رسولاً إذا كُلّف بتبليغ ولو آية واحدة أو حكم أو حكمة أو موعظة، كما يظهر من تسمية من أُرسلوا إلى أهل القرية ـ في سورة يس ـ فقد سُمُّوا رسلاً مع أنّه روي أنّ الذي بعثهم عيسى عليه السلام، وتدبّر كذلك قول الحق سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وأوّل الآية التي قبلها: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فاطر: ٢٤]، والآية التي قبلها: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣]، وفي سبأ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

ثم إنّ المعهود والمعقول أن لا يُوحى لنبي ثم يُعْفَى من مسؤولية التبليغ، ولكن الرسل من الأنبياء على درجات، فأوّلهم وسيدهم محمّد ﷺ، فهو على رأس أولي العزم، ثم الأربعة الآخرون ثم بقيّة الرسل الـ ٣١٣ كما رُوي؛ فهم درجات في العزم، والجهود المبذولة، والمهام الملقاة عليهم، والأقوام المأمورين بمخاطبتهم وتبليغهم (كَثْرةً وعُتُوًا) بهذا الفهم تتجلّى لنا أمور كانت موضعَ التباسٍ كما سبق ذكره مثل: هل من الجن رسل؟ وقد أنكر ذلك البعض رغم النص الصريح في سورة الأنعام: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[1] الآية (١٣٠)، وقد بيّنت في موضعه قبل أن أهتدي إلى هذا الفهم أنّهم نُذُرٌ كما سمّاهم الله تعالى في قوله: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ الأحقاف الآية (٢٩).

***

٦٦ ـ قوله تعالى في آل عمران (٤٦): ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾؛ فيه إحالة على ما في مريم (٢٩) وما بعدها: ﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ

(١) راجع السراج المنير (ج١ / ص٤٥٠) لتعرف ما قيل حول آية الأنعام هذه.

ٱللَّهِ ...﴾ إلخ ما تكلّم به في هذه الآيات.

* * *

٦٧ ـ في غافر آية (٨): ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ ...﴾؛ إحالة على ما في آيتي الرعد (٢٢ / ٢٣): ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ...﴾ إلخ، وما في آية الطور (٢١): ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وإنْ كانت هذه الأخيرة خاصة بإلحاق الذرية بالأبوين، والآيتان الأوليان عامتان[1].

* * *

٦٨ ـ آية (٣٦) الأنبياء: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ متضمّن إحالة على مواضع مثل: آية الفرقان (٦٠) ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾، وآية الزمر (٤٥) ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

* * *

٦٩ ـ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ ...﴾ الآية (١٣٧) الأعراف؛ فيها إحالة على ما ورد في آية (٤) من القصص ﴿... وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ...﴾، وإلى ما في الآية (١٢٩) الأعراف ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾[2].

---

(١) ذكرت هذه الفقرة في مبحث التكامل ولكن من جانب آخر.

(٢) متممة لما في الفقرة ٦ من الكتاب.

٧٠ ـ ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ... ﴾ الآية (٥٦) من سورة النحل؛ فيها إحالة على آية (١٣٦) من سورة الأنعام ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ... ﴾.

* * *

٧١ ـ ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ... ﴾ [النساء: ٢٥][1]؛ الإحالة فيها واضحة على آية النور التي تنص على جلد الحرة الزانية البكر مائة جلدة، وقد ربط بينهما الشافعي في كتابه «الرسالة» كما بيّنت ذلك في مبحث (التكامل السياقي).

* * *

٧٢ ـ في آية (٤٧) النساء ﴿ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ... ﴾؛ إحالة على آية (٦٥) من سورة البقرة ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾، وعلى آية المائدة (٦٠) ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ ... ﴾ إلخ الآية.

* * *

٧٣/ ٧٤/ ٧٥/ ٧٦/ ٧٧/ ٧٨ ـ (إحالات ضمن سورة يوسف):

أ ـ في آية (١٠٠): ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف: ١٠٠]؛ إحالة على آية (٤) ﴿ ... يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾.

---

(١) الآية (٢٥) من سورة النساء.

ب ـ إحالة ما في آية (٨٠): ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ... ﴾؛ على ما في آية (٩) ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ... ﴾، وما في آية (١٠) ﴿ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾، وما في آية (١٥) ﴿ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾.

ج ـ إحالة ما في آية (١٥): ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾؛ على ما في آية (٨٩) ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾.

د ـ ما في آية (٩٥): ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ محال على ما في آية (٨) ﴿ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

هـ ـ إحالة ما في آية (٨٠): ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ... ﴾؛ على ما في آية (٦٦) ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ... ﴾.

و ـ إحالة ما في آية (٩٦): ﴿ ... قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾؛ على ما في آية (٨٦) ﴿ ... وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

* * *

٧٩ ـ ما في (١١٦) من سورة النحل: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ... ﴾، وما في آية يونس (٥٩) ﴿ ... فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾؛ تذكير وإحالة على ما في آيات الأنعام (١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٣، ١٤٤)، وآية المائدة: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ ... ﴾ [المائدة: ١٠٣] إلخ.

* * *

٨٠ ـ ما في آية الملك: ﴿ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ ... ﴾؛ إحالة على ما في سورة غافر: ﴿ ... فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾.

* * *

٨١ ـ الآيتان (١٨، ١٩) من سورة الشعراء: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾؛ تحيلان على ما في آيات القصص المجاورة آية (١٥) ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ... ﴾، وآية (٨) ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ ... ﴾، وآية (٩) ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ... ﴾، وآية (١٢) ﴿ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ ... ﴾، وآية (٣٩) من طه ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾، وآية (٤٠) من طه ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾.

* * *

٨٢ ـ قوله تعالى: ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ... ﴾؛ إحالة على ما في القصص الآية (٢٥) ﴿ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، وآية (٢٧) ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ... ﴾، وآية (٢٩) ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ... ﴾.

* * *

٨٣ ـ قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الآية (٣٧) من سورة البقرة، فيه إحالة على قوله في سورة الأعراف آية (٢٣) ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[1].

* * *

(١) ذُكرت في مبحث التكامل السياقي.

٨٤ ـ ما في آية (٦٠) من سورة الإسراء: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ...﴾؛ محال على ما في سورة النجم من آية (١١ ـ ١٨): ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾، وكذا على ما في الإسراء ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ...﴾ [الإسراء: ١].

***

٨٥ ـ قوله تعالى في سورة الزمر الآية (١٢): ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ فيه إحالة على ما في الأنعام آية (١٤) ﴿... قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ...﴾.

***

٨٦ ـ قوله في آخر الأنعام آية (١٦٣): ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾؛ فيه إحالة على ما في آية (١٤) من السورة نفسها: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وآية (١٠٥) من سورة يونس ﴿... وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وآية (٨٧) من القصص... وعبّر بقوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ لأنّ الأمر بالشيء نهي عن ضدّه، وكذا العكس كما قال الأصوليّون[1].

***

٨٧ ـ إحالة جميع الآيات التي تتحدّث عن خلق السماوات والأرض في ستة أيّام على ما في سورة فصّلت التي بيّنت كيفيّة هذا الخلق وتوزيعه على الأيّام من آية (٩ ـ

(١) بل هذه التعبيرات هي التي أوحت للأصوليين بهذا المعنى مما يدلّ على مدى ارتباط علم أصول الفقه بالسياق القرآني.

١٢)، وعلى آيات سورة النازعات.

* * *

٨٨ ـ ما في قوله تعالى من سورة الأعراف آية (١٢٩): ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا... ﴾.

فقولهم: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا... ﴾ محال على آيات الأعراف والبقرة وإبراهيم: آية (١٤١) الأعراف، وآية (٤٩) البقرة، وآية (٦) من سورة إبراهيم.

ثم إنّ قولهم ﴿ وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا ﴾؛ إحالة على ما في قوله تعالى: ﴿... قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴾ (١٢٧) الأعراف، وما في قوله: ﴿ وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ (٢٢) الشعراء.

ومن الآيات التي أحيل عليها قولهم ﴿ مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا... ﴾ آية (٤) من سورة القصص: ﴿ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ ... ﴾.

ومن الآيات التي أحيل عليها ﴿ وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا ﴾: آية (٢٠) من القصص ﴿ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ ... ﴾، وآية (٢٥) ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴾ [غافر: ٢٥][1].

* * *

(١) يلاحظ أنّ بين ما في هذه الآيات تداخلاً بخصوص ما حصل لهم قبل مجيئه عليه السلام أو بعد مجيئه، وهذا لا يقدّم ولا يؤخّر في فهم هذه الإحالة.

٨٩ ـ قوله تعالى في سورة المائدة آية (١١٧): ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ... ﴾؛ فيه إحالة على ما في الآية (٧٢) من السورة نفسها: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ... ﴾ إلخ الآية.

* * *

٩٠ ـ قوله تعالى في أوّل سورة الشورى الآية (٣): ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾؛ أي مثل ذلك الوحي أو مثل ذلك الكتاب، يعني: إنّ ما تتضمنّه هذه السورة من المعاني قد أوحي إليك مثله في غيرها من السور كما أوحى مثله إلى الرسل من قبلك، أي إنّ الله كرّر هذه المعاني في القرآن وفي جميع الكتب السماوية وقال أبو السعود في جملة ما قال تعليقًا على الآية: مثل إيحائها أوحي إليك عند إيحاء سائر السور وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم، وفي جعل مضمون السورة أو إيحائها مشبّهًا به؛ دلالة واضحة على عظمتها[1]، كما هو في الوقت نفسه من أوضح الحجج والأدلة لحجية السياق القرآني.

* * *

٩١ ـ في سورة يونس الآية (٩١): ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾؛ محمولة على كل ما ورد في القرآن منسوبًا إلى فرعون من طغيان وفساد وتألّه واستكبار وقتل للمستضعفين، والتي يمكن أن نجد لها خلاصة في آية القصص (٤): ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

* * *

(١) تفسير أبي السعود (ج٥ / ص٢٨)، والسراج (ج٣ / ص٥١٦). وانظر الأضواء (ج٧ / ص١٤٩).

٩٢ ـ في آية (١٨) من سورة طه: ﴿...وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾؛ هذه المآرب إمّا أنّها إشارة إلى حاجات أخرى كان يقضيها بها، ولا يريد أن يذكرها في هذا المقام، وإمّا أنه أوحي إليه بهذه المآرب أو بعضها، ومهما يكن من الأمر؛ فإنّنا يمكن أن نذكر من هذه المآرب:

أولاً ـ ما جاء مباشرة بعد آية (١٨): ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

وثانيًا ـ ما في آية (١٦٠) الأعراف: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ...﴾، ومثلها ما في آية البقرة (٦٠).

وثالثًا ـ ما في آية (٦٣) من سورة الشعراء: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ ...﴾ إلخ الآية.

***

٩٣ ـ الأنعام آية (١١٩): ﴿... وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ...﴾؛ إحالةٌ على كل ما ورد في القرآن من المحرّمات، وبخاصة آيات البقرة (١٧٣)، والمائدة (٣)، والنحل (١١٥)، وآية (١٩٥) الأنعام[1].

***

٩٤ ـ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]؛ محال على الانتصار في تبوك الذي هو بحق نصر الله؛ إذ لم يحصل قتال من جهة، وعلى أكبر جيش في العالم من

---

(١) لم نذكر الخمر والربا وغيرهما من المحرّمات لأنّ سياق آية الأنعام إباحة ما ذُكِرَ اسمُ الله عليه من الذبائح ﴿وما لكم ألاّ تأكلوا مما ذُكِرَ اسمُ الله عليه...﴾.

جهة ثانية. وفي قوله ﷺ : نصرتُ بالرعب...؛ بصيغة المبني للمفعول إرجاع النصر لله وحده.

* * *

٩٥ ـ في سورة البقرة الآية (٥١): ﴿...ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ...﴾.

قال سيّد قطب: وقصة اتخاذ بني إسرائيل للعجل وعبادته في غيبة موسى عليه السلام عندما ذهب إلى ميعاد ربّه على الجبل، مفصّلة في سورة طه، وهنا فقط يُذكِّرهم بها وهي معروفة لديهم، فهذا القول منه إحالة لما في آية البقرة ـ مجملاً ـ على ما في آية طه ـ مفصّلاً ـ[1].

* * *

٩٦ ـ والآية (٥٥ / ٥٦) البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

قال سيّد قطب: الذي طلب هذا ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] هم السبعون المختارون منهم الذين اختارهم موسى عليه السلام لميقات ربه، الذي فُصّلت قصته في السور المكية من قبل، فهذه أيضًا منه إحالة كما ترى[2].

* * *

٩٧ ـ إحالة أخرى من سيّد قطب؛ لما في الآية (٥٨) البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ

---

(١) الظلال (ج١ / ص٨٩).

(٢) الظلال (ج١ / ص٩٠).

ٱلْقَرْيَةَ ...﴾ إلخ، حيث قال: تذكر بعض الروايات أنّ القرية المقصودة هنا هي بيت المقدس التي أمر الله بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر أن يدخلوها، ويُخرجوا منها العمالقةَ الذين كانوا يسكنونها، والتي نكص بنو إسرائيل عنها، وقالوا: يا موسى إنّ فيها قومًا جبّارين... إلخ الآية (٢٢) من سورة المائدة.

***

الفصل الثاني

التشابه السياقي[1]

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ الآية (٢٣) من سورة الزمر.

إذا طبّقنا دلالة الاقتران على الآية، نتج أنّ التشابه السياقي من أهمّ مزايا هذا الكتاب الكريم، ومن مظاهر حسنه وكماله بل وإعجازه.

وهو أيضًا من وسائل تثوير وتنوير النص، ليتأتّى لمن يُحسن التأمّل فيه وسبر غوره استخراج معاني جديدة تلبّي حاجات جديدة تنشأ عن تطوّر الحياة، وبهذا وغيره من مزايا هذا الكتاب، يكون روحًا متجددة، فتستمر به الحياة، وتُستمرأ، ويعيش مع الأجيال على مدى الآجال، يعطيها الجديد فلا تشعر بأنّه نازل قبل أربعة عشر قرنًا؛ وهنا نذكر قول عمر رضي الله عنه: اعرفِ الأشباه والأمثالَ ثم قِسِ الأمورَ عند ذلك.

وهناك من العلماء من حمل قوله تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]؛ على مثل ما فهمنا بالتشابه في هذا المبحث، وذلك في قول البغوي في كتاب «أركان الإيمان» (ص٧٣): في تفسير ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]؛ أي: يصدق بعضها بعضًا،

---

(١) ذكرت في بداية الموضوع أنّني قد أفردت التكامل السياقي الذي يأتي في قوة دلالته بعد الإحالات وقبل التشابه، في كتاب خاص بسبب كبر حجمه.

كقوله سبحانه: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، وكقوله: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠]، وكقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]؛ فهذه الآيات وإن تباعدت في مواضعها من القرآن الكريم إلاّ أنّها يُصدّق بعضها بعضًا في المعنى، مع أنّنا أردنا بالمتشابه هنا ما هو أوسع من هذه الرؤية للبغوي، إذ هذه الرؤية مقتصرة على التشابه في المقاصد، ولكنّي أردت بالتشابه هنا التشابه اللفظي والمعنوي معًا.

هذا؛ ومما لا ريب فيه أنّ وجود شَبهٍ بين آية أو آيات في موضع وبينها وبين آية وآيات في موضع آخر أو أكثر من موضع يُساهم في توضيح إحدى الآيات بالآيات المشابهة لها، وذلك بحسب درجة التشابه، ومما لا شك فيه كذلك أنّ وجود هذا التشابه يعطي حجة واضحة على أمرين:

الأوّل: أنّ مصدر التنزيل للجميع واحد.

والثاني: القصد من هذا التشابه أن يقاس الشبيه بالشبيه عندما يكون في أحدهما غموض أو إبهام.

ومن هنا فإنّني رأيت أنّ المتشابه المقصود هنا قسمان:

أ ـ التوضيحي: بمعنى أنّ أحد المتشابهين يوضّح الآخر.

ب ـ التكاملي: بمعنى أنّ أحدهما يكمّل ما في الآخر من نقص؛ وهناك حالات قليلة يكون التشابه فيها تماثلاً وتطابقًا من كل وجه، فهذا من قبيل التأكيد والتصديق.

وهنا نذكرك بأننا لا زلنا مع حجية السياق قرآنيًّا؛ بمعنى الاستدلال بالقرآن نفسه على حجية السياق القرآني ودلالته ومشروعية هذا الاستدلال، بعد أن أوردنا من أدلة ومعالم هذه المشروعية الإحالات القرآنية السياقية، والتكامل السياقي[1].

---

(١) أفرد في كتاب مستقل لطوله كما قدمت.

ولا ننسى في هذا المقام أن نشير إلى المعنى الآخر للتشابه المراد من آية آل عمران، غير الذي نقل آنفًا عن البغوي، وهو المعنى المشهور، والمقابل للمحكم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ... ﴾ [آل عمران: ٧] إلخ الآية؛ فإنّ سياق هذه الآية يدلّ على غير المعنى الذي ذكره البغوي، أخذًا من مواضع عدة في الآية:

أ ـ ذكر المتشابه هنا في مقابلة المحكم، ومعلوم أنّ المحكم هو الواضح المعنى، إذًا مُقابِلُه غير واضح.

ب ـ من كون المتشابه هو موضع اهتمام الزائغة قلوبهم لسهولة حَرفِه إلى مقاصدهم ابتغاء الفتنة.

ج ـ هو الموضع الذي يمكن أن يُحمل على أكثر من معنى فيختار كل ناظر المعنى المناسب لهواه.

وهنا نذكر لك الحديث المتفق عليه، وهو عن عائشة رضي الله عنها أنّه صلّى الله عليه وسلّم تلا هذه الآية، ثم قال: «فإذا رأيت الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سَمَّى اللهُ فاحذرهم»[1].

أقول: هذا المعنى للتشابه هو المنهي عن الخوض فيه، وهو مما لا يمكن فهمه من داخل السياق، وكان صحابة النبي رضي الله عنهم يتحاشون الخوض فيه ويُنفِّرون من ذلك، وبخاصة ما يتعلّق بصفات الله تعالى، وبالغيبيات وبفواتح السور المبدوءة بالأحرف النورانية (المُقَطَّعة) مثل (ألم، كهيعص، ق)... ونحو ذلك مما لا يعلمه إلاّ الله

(١) انظر كتاب «الجمان في علوم القرآن» د. محيي الدين عبد الحميد (ص٩٢).

تعالى، وسنذكر لك تحت مبحث (أعمال سياقية بعيدة عن السياق) أمثلة للخوض في مثل هذه المتشابهات المنهي عنها.

ورغم أهميّة هذا الجانب إلاّ أنني لن أَمُدَّ النَّفَسَ فيه، كما فعلتُ في التكامل السياقي لأسباب أربعة:

الأوّل: أنّ الشخص العادي ـ فضلاً عن أهل العلم ـ يستطيع كشف الآيات المتشابهة، ومعرفة الفرق بينها، وبخاصة قسم المتشابه اللفظي، وليس الذي تحدث عنه البغوي مما يحتاج إلى مزيد من التدقيق والبحث مما هو خاص بأهل العلم المتخصصين في علوم الشرع.

الثاني: أنّ هناك تفاسير قديمة وحديثة تهتم بجمع الآيات المتشابهة مثل تفسير ابن كثير والطبري، وفي العصر الحاضر تفسير الشنقيطي «أضواء البيان المسمى تفسير القرآن بالقرآن».

والثالث: الاستعانة بالإنترنت والكمبيوتر، حيث يكفي أن تذكر كلمة واحدة من آية فتجد جميع الآيات المشابهة لها، وقد أغنى ذلك عن المعاجم المفهرسة التي كان يُرجَعُ إليها عند الحاجة لمعرفة هذه المواضع المتشابهة. وهذا غير ما في مبحث الإحالات والتكامل مما لا يمكن الوقوف عليه إلاّ بالبحث والتدبر وإن كان موضوع التكامل قريبًا من التشابه.

الرابع: أنّ مجاله واسع جدًّا حتى استحقّ أن يوصف به القرآن ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]، ولا سيما حين نريد جمع المتشابهات لفظًا ومعنى، وقد أُلّف في ذلك كتب مطولة يمكن الرجوع إليها عند الحاجة[1]؛ مما يعني أنّنا لا نأتي بجديد كما فعلت في

---

(١) «الأشباه والنظائر في القرآن الكريم»، لمقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠هـ). وكتاب «العجائب والغرائب»، لمحمود بن حمزة الكرماني (ت ٥٠٠ هـ)، و«الإكليل في المتشابه والتنزيل» لأحمد بن تيمية.

الإحالات والتكامل ـ اللذين أعتبرهما جديدين مما منّ الله بذلك عليّ ـ ولذا فإنّني سأكتفي بذكر بعض النماذج، وإليك هذه النماذج:

١ ـ قال تعالى في سورة طه عن إبليس حين امتنع عن السجود لآدم عليه السلام في آية (١١٦): ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾.

ـ وفي الحجر آية (٣١): ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، وفي الحجر (٢٩): ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

لاحظ كيف اشتملت على الأمر التعليقي: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ ...﴾؛ أي: تعليق الأمر بالسجود على تسويته ونفخ الروح فيه، لكن آية طه اشتملت على الأمر التنجيزي: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾.

ـ وفي الأعراف آية (١١): ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

ـ وفي ص آية (٧٢): ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

ـ وفي البقرة آية (٣٤): ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ ...﴾.

والآن لاحظ رغم التشابه كيف جاء التعبير عن إباء إبليس بحسب موقع كل سياق:

أ ـ أبى (فقط).

ب ـ أبى أن يكون مع الساجدين.

ج ـ لم يكن من الساجدين.

د ـ استكبر وكان من الكافرين.

هـ ـ أبى واستكبر وكان من الكافرين.

وهنا نلاحظ أن التعبير عن الإباء في سورة البقرة ملائم للواقع الموجود في المدينة المنورة، وبخاصة كل من استكبر من بني إسرائيل عن الإيمان برسالة سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم رغم علمهم من كتبهم بصدقه، وهذا شبيه بحال إبليس من كونه معاشرًا للملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم.

ويمكن بدراسة هذه السياقات المتشابهة الخروج بدروس وعبر كثيرة؛ ليعلم أن التشابه بين الآيات أو السياقات ليس هو من قبيل التكرار، بل إنّه يتلوّن بلون السياق معنًى، وجوًا، وظلالاً... إلخ هذه المضامين والاعتبارات.

٢ ـ في سورة الأنعام آية (٥٢): ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

ـ وفي سورة الكهف آية (٥٨): ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ...﴾.

ألا ترى أنّ ما في الكهف زاد على ما في الأنعام من مظاهر الرعاية والعناية بالعامة من الناس، ولا سيّما إذا كان السادة ينظرون إليهم باستخفاف واستهزاء، ويرون أنفسهم فوقهم في المنزلة والجاه والتقدير، فهي لم تكتف بالنهي عن إبعادهم عن مجلسه، وإنّما توجب عليه أن يلازم مجالستهم، وإن نظرة فاحصة مخلصة في السياقين تُظهر صفحةَ الإسلام وَضَّاءة مشرقة لكل إنسان لا زال محتفظًا بفطرته الأولى، ولم تتلوث بالهوى والشهوات الدنيوية التي تتغلف بالمظاهر الخادعة. وما أعظم دلالات

هذين السياقين في مجال الكشف عن إنسانية المبادئ الإسلامية، وشدة بُعدها عن الموازين المادية الهابطة في معاملة الناس.

ثم ألا تراها تضع الأساس المكين والقاعدة الصلبة لمسيرة الدعوة والدعاة إلى الله تعالى، فلا مجاملة ولا محاباة ولا تمييز بمال أو منصب أو جاه، بل لا نغالي حين نقول: إنّه يوجد تمييز ومحاباة ومجاملة ولكن في الاتجاه العاكس لما عليه الطغاة في موازينهم وقيمهم، وفيمن يقربونه منهم أو يبعدونه عنهم.

٣ ـ **تشابه تكاملي**: في آل عمران (٥٥): ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ... ﴾، ثم النساء التي بعدها آية (١٥٨): ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ... ﴾، ثم المائدة التي بعدها آية (١١٧): ﴿ ... فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ... ﴾؛ توافق عجيب، ولا عجب من أمر الله تعالى: ترتيب نزولي موافق لترتيب التلاوة مع التناسق والتسلسل في المعنى السياقي للتعبير عما حصل لسيدنا عيسى عليه السلام: ففي (آل عمران) إخبار عما سيحصل له باسم الفاعل ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾، وفي (النساء) تعبير بالماضي مع إفراد الرفع ﴿رفعه﴾، ثم أخيرًا في (المائدة) يخبر عيسى عليه السلام عما حصل له في الآخرة مع إفرادِ الوفاةِ وعدم ذكر الرفع، استغناء بما سبق في آل عمران والنساء، فكم ترى في هذا النسق من روعة بيان، وتكامل في المعنى حتى كأنّها سورة واحدة[1]!!

٤ ـ وهذا النموذج شديد الشبه بالسابق، وهو في موضوع اعتداء بني إسرائيل وانتهاكهم لحرمة السبت، الذي اختاروا تقديسه بأنفسهم مؤثرين إيّاه على يوم الجمعة: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ... ﴾ آية (١٢٤) النحل.

---

(١) تناولت هذا الموضوع من جانب آخر في مبحث التكامل السياقي، وأُذكرك هنا بأنّ التكامل والتشابه كثيرًا ما يحصل بينهما تداخل، ومن هنا ذكرت من أنواع التشابه: التكاملي.

وهنا أريدك أن تلاحظ التكامل بين سياقات ثلاثة:

الأوّل: في سورة النساء الآية (١٥٤): ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ... ﴾؛ فهنا طَلَبٌ بصورة النهي المغلظ، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾.

ـ وفي الأعراف الآية (١٦٣): ﴿... إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾؛ وهنا خبر بمخالفة الطلب، وجاء في صورة تفيد تكرر ذلك منهم ـ الفعل المضارع ـ.

ـ ثم في آية البقرة (٦٥): ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾؛ توجيه الخطاب للمعاصرين للنبي صلّى الله عليه وسلّم وفيه تحذير وتذكير.

٥ ـ أ) ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ الآية (٤٣) المؤمنون، وقبلها ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ... ﴾ إلخ الآيتين (٣٦، ٣٧) وما بعدهما.

ب) ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ آية (٤٩) من سورة يونس، وقبلها ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ الآية (٤٨).

ج) ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ الآية (٥) الحجر، ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ ﴾ (٣، ٤) الحجر.

د) ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ الآية (٦١) النحل، وقبلها ﴿...وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ في الآية نفسها.

هـ) ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ الآية (٣٠)

من سورة سبأ، وقبلها ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

و) ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ الآية (٣٤) الأعراف.

والآن تعال معي لنتدبّر صيغ هذه الآيات الستة ثم نتلمّس ما نراه من الحِكَم:

أ ـ نلاحظ أنّه يَذكرُ قبل الإخبار بالموعد المحدد لهلاك الأمم بحيث لا يتقدم ولا يتأخر ولو للحظة ـ فضلاً عن ساعة ـ: ورودُ ما يستدعي هذا التحديدَ من بيان مواقف الأمم؛ استبعادًا واستهزاءً لما يُهدَّدون من قِبَلِ أنبيائهم، وذلك في جميع المواضع الستة، ما عدا ما في الأعراف، وقد تعرض لبيان ذلك الشربيني قائلاً: نزلت آية الأعراف بسبب سؤالهم نزول العذاب، وأجاب الطبرسي بقوله: ثم بيّن تعالى ما فيه تسلية للنبي صلّى الله عليه وسلّم في تأخير عذاب الكفار، فقال: ولكل أمة أجل ـ انظر السراج المنير، وانظر مجمع البيان (ج٨ / ص٤٩).

أقول: هذا لا يكفي عند التعامل بالسياق، مما جعلني أعيد النظر في الآيات السابقة، فوجدت قرينتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وهي تتضمن التهديد للمشركين الذين يفعلون الفواحش وينسبون ذلك لله تعالى.

الثانية: ما في آية (٣٣) من التأكيد لما في الآيات السابقة مما يتضمن التهديد لقائلي الافتراءات الباطلة مع تَضَمُّنِ هذه الافتراءات عدم إيمانهم بيوم الحساب، وبهذا يتم التوافق بين سياق آية الأعراف وبين بقية السياقات.

ب ـ يلاحظ في سورتي (المؤمنون والحجر) تقديم انتفاء السبق على التأخير ـ خلافًا للبقية ـ وذلك لإظهار أن الأهمّ فيهما بيان انتفاء السبق بغض النظر عن التقديم

والتأخير.

ج ـ ثم في هاتين السورتين جاء الإخبار غير موافق للحالة الطبيعية ـ حيث يقدم طلب الاستئخار ـ؛ لأنّ المراد به مجرد الإخبار من غير ذكر ما يفيد الطلب في الظاهر (السين والتاء).

د ـ طلب نفي الاستئخار غير موافق للحالة الطبيعية عند الإنسان، وإنّما ورد بهذه الصيغة لإفادة المبالغة في انتفاء التأخر بإدراجه مع المستحيل عقلاً.

هـ ـ رأى بعض المفسّرين أن السين والتاء هنا ليست للطلب وإنّما جيء بهذه الصيغة للإشعار بحرمانهم من ذلك رغم حرصهم عليه[1].

وهنا يرد سؤال: ورد في أمكنة من القرآن أنّهم يطلبون التأخير مثل: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: ١٠]، أو ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ [إبراهيم: ٤٤]؛ فكيف نوفّق بين هذا وذاك؟

الجواب: السين والتاء ليستا للطلب الحقيقي كما سبق عن أبي السعود، وإنّما هما للمبالغة والتأكيد على انتفاء التقدم والتأخر.

٦ ـ في سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ... ﴾ [الجمعة: ٢] إلخ.

ـ وفي سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ...﴾ الآية (١٢٩). فإنّنا نلاحظ أنّ آية الجمعة نَصٌّ في أن الله تعالى قد استجاب لدعوة إبراهيم (٤).

---

(١) تفسير أبي السعود (ج٢ / ص١٦٥).

وفي آية البقرة (١٥١): ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾.

وهنا نلفت الانتباه إلى التوافق بين آية الجمعة وآية البقرة (١٥١) في وظائف النبي صلّى الله عليه وسلّم والمهمات المَنُوطة به لتربية الأمة التي أرسل إليها أوّلاً، ذلك أن المخبر فيهما هو الله تعالى، فأخر التعليم لمناسبة المقام، ففي الجمعة كان يناسب الرد على بني إسرائيل في اعتراضهم على نقل الرسالة منهم وهم أهل العلم والكتاب للأمّيّين (العرب) كما يناسب التذييل في الموضعين، أضف إلى ذلك أنّ في تقديم التزكية على التعليم الإشعار بأهمّية الأخلاق وتزكية النفوس في التربية لدى إبراهيم عليه السلام؛ وعليه فلكل مقام العبارة المناسبة له.

وقد تكرّر ذكر هذه الفقرة في مبحث التكامل ولكن من جانب آخر.

٧ ـ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ... ﴾ الآية (٢٩) من الأنفال، يرتبط هذا القول في معناه بما في سورة الحديد آية (٢٨): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ... ﴾، فإنّنا نستطيع القول بأنّ ما في آية الحديد يساهم في توضيح معنى الفرقان في آية الأنفال؛ لأنّ النور يبدّد الظلام ويُحسِّنُ الرؤيةَ البصرية، كما أنّ التقوى تُبدِّدُ الشبهات وتعين على التمييز بين أهل الباطل وأهل الحق.

وقد تنبّه لهذا الارتباط بينهما ابن كثير حيث أورد آية الحديد في نهاية تفسيره لآية الأنفال[1].

وهنا أرى من الضروري التأكيد على أهميّة إدراك المعنى، وهذه النتيجة من نتائج

---

(١) ج ٢ / ص ٣٠١ / ٣٠٢.

التقوى، فإنّها من أعظم آثارها في الدنيا والآخرة، وأؤكّد في هذا المقام أنّ جميع الأحزاب والمذاهب الضالّة والمضلة التي فرّقت أمتنا عبر وجودها المديد، وأبعدتها عن أنوار دينها في الكتاب والسنة، مما ألبس الحق ثوب الباطل، وكذا العكس، وأظهر العدو صديقًا، والصديق عدوًّا، والتمسك بالدين تخلفًا وعكسه تقدّمًا ورقيًّا.

أقول: كل هذا كان ولا زال بسبب عدم وجود هذا الفرقان وهذا النور بعد أن غابت شمس التقوى وأقفرت منها القلوب.

كما أود أن أشير إلى فائدة أخرى لهذا الارتباط بين الآيتين وهي المساهمة في إزالة الالتباس الذي حصل لدى كثير من الناس في آية الحديد وتوجيه الخطاب فيها؛ أهو للمسلمين أم لأهل الكتاب؟ وذلك أنّ اتّحاد معناهما يرجّح أنّ المراد هم المسلمون.

٨ ـ في سورة الطور آية (٢٤): ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾.

ـ وفي سورة الدهر آية (١٩): ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾.

ـ وفي الزخرف آية (٧١): ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ...﴾.

ـ وفي الواقعة آية (١٧، ١٨): ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾، ثم آية (٢٠، ٢١): ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾، ثم آية (٢٢): ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: يطوف عليهم ـ بما ذكر في مجموع الآيات ـ مع الولدان الحور العين.

انظر في هذه الآيات ومثيلاتها تحصل على صورة من أروع وأمتع صور النعيم في الآخرة، وتعلم أنّك لو عبدتَ الله ليلاً ونهارًا ـ مع تَركِ مساخطِه ـ فإنّ ذلك غير مكافئ

لبعض هذا النعيم، فكيف بما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطرَ على قلب بشر؟!!

٩ ـ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ الآيات (٤٢، ٤٣) من سورة يونس.

ـ وفي الروم (٥٢، ٥٣): ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

ـ وفي سورة النمل (٨٠، ٨١): ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

ـ وفي فاطر (٢٢، ٢٣): ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

ـ وفي الأعراف آية (١٩٨): ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

ـ وفي الأنفال (٢١، ٢٢، ٢٣): ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

ـ وفي البقرة (١٧١): ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

ألست ترى أنّ بين هذه الآيات تشابهًا وتكاملاً يتكون من تَدبُّرها مجتمعةً صورةٌ واضحة لطبيعة الكفار في موقفهم من الحق وفي أهمّ أسباب كفرهم، مما يؤيّد رأينا في أنّ الكفر ليس أمرًا لازمًا لا يستطيع الإنسانُ الانفكاك منه حين يُحسِنُ استعمال حواسه؛ مصداق ذلك في قول أهل النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]؛ أي: لو استعملوا حواسهم وعقولهم استعمالاً حسنًا لهدتهم إلى الإيمان والعمل بما يُرضي الله تعالى وتجنب مساخطه فلا يدخلون النار. وهنا أذكرك بآية الأعراف التي قد يُستدلّ بظاهرها على خلاف ذلك عند الغفلة، عن تَدبُّرِ سياقها وهي آية (١٧٩): ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، هذا هو الشقّ الذي يوقع في اللبس من الآية، ويقف عنده من يرون هذا الرأي، ولكن شِقَّها الثاني يعطي لمعناها التكامل والتوازن: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

نعم، والحق أنّهم أضلُّ من الأنعام حيث كان يمكن أن يبصروا ويسمعوا ويستجيبوا بعد ذلك لدعوة الحق ولكنّهم عطّلوا هذه الحواس فصاروا أضلّ من الأنعام، وهل أضلُّ ممن رمى المصباح من يده، أو أطفأه، ثم دخل ـ متحدّيًا ـ غرفة مظلمة، فلدغته حيةٌ فمات؟! ولذا فإنّنا نقول مع قول الحق سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ آية (٧) التحريم.

١٠ ـ آية (٢١) من سورة إبراهيم: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

ـ وفي سورة غافر آية (٤٧ ـ ٤٨): ﴿... فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟

﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾.

لقد تناولت موضوع هذه الفقرة في مواضع أخرى من هذه السلسلة، بمزيد من التفصيل لما لها من الأهميّة في التحذير من التبعية العمياء، وفي شَدِّ هِمَمِ وعزائم المستضعفين، وإبعادهم عن مصائد أهل الضلال ليسلموا من مصائبهم في الدنيا ومصابهم في الآخرة، ذلك أنّ الإكثار من تلاوة هذه الآيات يُقوّي جهاز المناعة عند المستضعفين ضد جميع وسائل الإغواء والإغراء، فيتبرّؤون منهم قبل أن يصدر الحكم عليهم جميعًا؛ ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾؛ أي في النار، أو ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ الآية (٣٨) الأعراف.

١١ ـ آية (٤٣) من سورة القمر: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ ...﴾ إلخ الآية؛ والاستفهام فيها إنكاري وتوبيخي، وهي تشبه ما في سورة الدخان الآية (٣٧): ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ...﴾؛ وكلا الآيتين في كفّار قريش، كما في آية (٣٤) من الدخان: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ...﴾ فالإشارة فيها لكفّار قريش، كما هو واضح من أوّل السورة حتى آية (١٦)، وبعد عقد المقارنة بينهم وبين فرعون وقومه عاد الحديث إليهم، ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ...﴾ واستمرّ حتى آخر السورة، وكذا ما في سورة القمر، فإنّها بدأت بالحديث عن كفّار قريش ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، ثم ذكرت مصائر أقوام كذّبوا قبلهم فأُهلكوا؛ كما في آية (٩): ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ...﴾ واستمرّ الحديث عن الأقوام الذين كذّبوا فأُهلكوا حتى آية (٤٢)، ثم عاد الحديث إلى كفّار قريش، واستمرّ حتى آخر السورة كذلك؛ وهذا هو الشأن في معظم السور المكية من قسم المفصّل، والغالب على السور المكية مهما طالت أن يكون ختامها عائدًا على ما

بُدئت به، وهذا من شواهد وأدلّةِ وحدةِ السورة، مهما ظهر من تَنَوُّعِ أغراضها لمن لا يُحسِنُ كشفَ الارتباطات والتشابهات.

١٢ ـ **تشابه تكاملي**: في سورة البقرة آية (٧٨): ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ... ﴾، وبعدها (٧٩): ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ... ﴾.

ـ وفي آل عمران الآية (٧٨): ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

وهنا أَودُّ التذكيرَ بأمرين: **الأوّل**: وجود التشابه الرقمي بين السياقين. **الثاني**: هناك تشابه كبير في مواضع كثيرة بين السورتين ـ آل عمران والبقرة ـ قمت بجمعها ضمن مشروع أو عمل سياقي شامل للقرآن كلّه، حيث ظهر لي وجود تشابه بين كل سورتين متجاورتين، ليس في افتتاحها وختامها فحسب، كما أشار إلى ذلك بعض الباحثين في السياق والنظام القرآني، بل في جميع مفاصل السورتين، وقد زادت هذه المواضع في البقرة وآل عمران عن ثمانين موضعًا[1].

١٣ ـ في سورة آل عمران الآية (٥١): ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.

ـ والآية (٣٦) من سورة مريم: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.

---

(١) ذكر صاحب «البرهان في نظام القرآن» عشرة وجوه من وجوه التشابه فقط، قائلاً: قد تكون هناك وشائج أخرى تربط هذه السورة (آل عمران) بالتي قبلها، فإن هذا الكتاب لا تنقضي عجائبه، وحسبنا أن وفّقنا إلى ما ذكرناه. (البرهان ـ ص٦٤٥).

ـ والآية (٦٤) من سورة الزخرف: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.

هذه آيات ثلاث متشابهة الكلمات والحروف لا تختلف إلاّ في حرف العطف في آية مريم، وضمير الفصل (هو) في آية الزخرف ـ الذي هو للتأكيد ـ وكلّها واردة على لسان عيسى بن مريم عليه السلام؛ مع أنّ منها المدني ـ آل عمران ـ ومنها المكّي ـ مريم والزخرف ـ وقوله فيها: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾، يشبه ما في آية يس (٦١): ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾؛ ممّا يبيّن أنّ الصراط المستقيم هو صراط (لا إله إلاّ الله) أي: صراط وحدانية الله تعالى، التوحيد الخالص الذي لا يشوبه أية شائبةِ شركٍ في ألوهيةٍ ولا في ربوبية، والمتدبر في هذه الجملة يجد أنها أجملت خلاصة الأديان السماوية، وما ينبغي أن تجتمع عليه كلمة أهل هذه الأديان ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ الآية (٦٤) من آل عمران.

وهنا نلاحظ أنّ سيّدنا محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم قد طالب أهل الكتاب من اليهود والنصارى بما طالبهم به عيسى عليه السلام كما ورد في الآيات الثلاث السابقة؛ وهذا هو المحور الذي تدور عليه عجلة الحياة السعيدة، والذي تدور عليه عمارة الأرض وخلافتها بما يكفل للبشرية أن تعيش في طمأنينة وسلام وأمن، وبغير هذا فلا أمنَ ولا طمأنينة ولا سلام ـ ولو عُقدت آلافُ مجالس وندواتٍ للحوار بين أهل الأديان ـ فليتنبّه الغافلون.

١٤ ـ بين آية البقرة (١٧٤): ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ

ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، وبين آية (٧٧) من آل عمران: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

فأنت ترى تكاملاً في المعنى بين الشقّ الأوّل من كلّ من الآيتين كما ترى تشابهًا في نهايتيهما، فهو من قسم التشابه التكاملي؛ ذلك أنّ الذي يكتم ما أنزل الله من الكتاب وقد أخذ عليه العهد أن يعلّمه للناس كما في آية آل عمران (١٨٧): ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾.

أقول: إنّ الذي يكتم ما أنزل الله من الكتاب يكون قد نقض الميثاق الذي أُخذَ عليه بتعليمه وبيانه كاملاً للناس، ولو فعل أهل الكتاب ذلك لآمنوا أوّلاً برسالة سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ولما قالوا ما سَجَّلَ الله عليهم في سورة النساء آية (٥١): ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾.

١٥ ـ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ الآية (١٨٥) من آل عمران، والآية (٣٥) من الأنبياء، والآية (٥٧) من العنكبوت.

لاحظ أنّ البداية متطابقة بين هذه الآيات، ولكن النهايات تختلف بحسب كل سياق، ويمكن إيراد آية (٣٠) من الزمر: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾؛ فهي تشبه في معناها الآيات السابقة.

وإليك نهايات الآيات الثلاثة:

أ ـ آية آل عمران: ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ... ﴾ فالبداية لا

يجادل فيها كافر فضلاً عن مؤمن؛ ولكن المؤمن يجد في نهاية الآية استمرارًا لحياته أو استئنافًا لحياة أفضل فلا يقلقه هذا الخبر، وإنّما هو تذكير بزيادة العمل الصالح، والإقلاع عن ضدّه.

ب ـ وآية الأنبياء نهايتها: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ فهذه النهاية تذكّر بالآية الثانية من سورة الملك: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ ...﴾، ومن عرف سرّ الموت لا يجزع منه، ونهاية آية العنكبوت ﴿وإليه تُرجعون﴾، تتكامل مع آية آل عمران في المعنى؛ إذ يرجع بعد الموت ليُوفّى أجرَ عمله، ثم تأتي آية الزمر فتشكّل قمّة عبارات المواساة، حين يعلم المرء أنّ الموت لا يسلم منه حتى أحبّ الخلق إلى الله تعالى؛ وعليه فالتشابه بين هذه الآيات تكاملي.

١٦ ـ في آية (٣) من سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ...﴾.

ـ وفي سورة النحل آية (٣٨): ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ...﴾.

ـ وفي الآية (٧) من سورة هود: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ـ وفي التغابن آية (٧): ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ...﴾.

فأنت ترى بين هذه الآيات تشابهًا تكامليًّا وتوضيحيًّا.

١٧ ـ في آية (١٩) من سورة المؤمنون: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

ـ وفي آية (٧٣) من الزخرف: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

لاحظ ما يلي:

أ ـ الأولى بعض آية، والثانية آية مستقلّة، وقد أشرت إلى بعض السر في ذلك في مبحث (الإعجاز في ترقيم الآيات) ـ الحلقة الثانية من هذه السلسلة ـ.

ب ـ الأولى «فواكه» بالجمع، والثانية «فاكهة»؛ ممّا يدلّ على أنّ المراد هنا بالفاكهة الجنس، وهي عندئذ بمعنى فواكه بدليل الاتّحاد في الوصف أيضًا (كثيرة).

ج ـ عدم وجود واو العطف قبل (منها) في آية الزخرف بما يفيد عدم الاقتصار على الفاكهة في الأكل، كما يفيد في الوقت نفسه على أنّ الغاية من الأكل الاستمتاع والتفكّه وليس كما هو في الدنيا غذاءً، وتعويضًا للنقص، وبناء الجسم... إلخ هذه الغايات.

١٨ ـ تشابه توضيحي: في الأنعام آية (٣): ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾.

ـ وفي الزخرف (٨٤): ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ... ﴾.

يؤخذ منهما معًا أنّه سبحانه هو وحده المستحقّ للعبادة من قبل أهلِ السماوات والأرض، وأنّه المعروف بالإلهية فيهما، وهذان التركيبان يفيدان في توضيح معنى «لا إله إلاّ الله»، وأنّه لا معبودَ بحقّ إلاّ الله، وإن كان البعض قد فسّرها بقوله: لا موجود بحقّ إلاّ الله، وهم الصوفية، وقد رأيت الدكتور مصطفى محمود في كتاب «القرآن محاولة عصرية» قد ركّز على المعنى الثاني.

١٩ ـ تشابه توضيحي: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ الزخرف آية (٨١).

حصل في هذه الآية اختلاف كبير بين المفسّرين حول معنى «إنْ» فيها، ولقد

رأيت ما يُزيل هذا الخلاف بما بينها وبين آية في سورة الأنعام من تشابه، وهي آية (١٩): ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾؛ فهي صريحة في رد قول من قال: فأنا أوّل العابدين لهذا الولد، وذلك أنّ باب التوحيد باب خطير لم يجعل الله سبحانه لنبيّه فيه أيّة مجاملة، ولو افتراضًا ﴿قُل لَّا أَشْهَدُ﴾، وكذا ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، وهذه أيضًا تشبه آية الأنعام الأخرى (١٥٠): ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ...﴾ ؛ فالمعنى إذًا في الزخرف: فأنا أوّل الموحّدين له سبحانه والعابدين في جميع الأحوال والافتراضات.

٢٠ ـ تشابه تكاملي وتوضيحي: بين آية (٧٧) من سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾.

ـ وآية الشعراء (٥٢): ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

ـ وآيتي الدخان (٢٣، ٢٤): ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

لاحظ التكامل فيما بينها في:

أ ـ إضافة كلمة ﴿ليلاً﴾ في آية الدخان.

ب ـ في آيتي طه زيادة ﴿لا تخاف دركًا، ولا تخشى﴾: أي لا تخاف لحاقًا بكم ولا تخشى الغرق، بينما فرعون وقومه ﴿جند مغرقون﴾.

ج ـ في آية الدخان لم يذكر ﴿أوحينا إلى موسى﴾ بل جاء التعبير بـ ﴿فأسر﴾ بالفاء بعد قوله مباشرة ﴿فدعا ربّه أنّ هؤلاء قوم مجرمون﴾؛ أي طلب النصرة من الله

تعالى مع ذكر سبب الطلب، فجاء التعبير بالفاء للدلالة على سرعة الاستجابة.

د ـ تفسير كلمة ﴿رهوًا﴾ في آية الدخان، من آية طه: طريقًا ومعبرًا. وقال الشربيني موضّحًا بعض مظاهر التكامل: ولمّا أمره بالإسراء أمره بما يفعل فيه، فقال: ﴿واترك البحر رهوًا﴾؛ أي إذا سرت بهم وتبعك العدو ووصلت إلى البحر أمرنا بضربه...[1].

٢١ ـ تشابه بين ثلاث آيات في سور متجاورة: البقرة والنساء والمائدة:

ـ الأولى آية (٧٥) البقرة: ﴿... وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

ـ الثانية في النساء آية (٤٦): ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ...﴾ إلخ الآية.

ـ الثالثة في المائدة آية (١٣): ﴿...وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ...﴾ إلخ.

نرى أنّ سياق الآيات كلّها في بني إسرائيل، ونفهم من جميعها أنّ الذين حرّفوا فريق منهم، والظاهر أنّ المراد بهم أحبار اليهود ورهبان النصارى، كما نفهم أنّ اليهود هم بنو إسرائيل، مع أنّ استعمال هذه اللفظة في القرآن كان أشمل من لفظة ﴿الذين هادوا﴾ أو اليهود، ولعلّنا نجد إيضاح الفرق بينهما في آية (١٤) من سورة الصف: ﴿فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة...﴾؛ والكافرون بعيسى عليه السلام هم اليهود، ويُفهم من آية الصف أيضًا أنّ عبارة بني إسرائيل كانت قبل مجيء عيسى

---

(١) (ج٣/ ص٥٨٥).

عليه السلام كما تشير إلى ذلك آية (٦) من سورة الصف: ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل...﴾ وما وُجِدَ لفظ اليهود إلاّ بعد مجيء عيسى، وهم الفئة التي هادت: أي مالت عن رسالة عيسى وموسى عليهما السلام، وهكذا يمكن أن يقال: كانوا قبل عيسى يُسمّون بني إسرائيل وبعد عيسى أو مع مجيئه رسولاً إليهم صاروا فريقين: نصارى أخذًا من آية (١٤) الصف: ﴿نحن أنصار الله...﴾. ويهودًا؛ كما كان الأنصار قبل سيّدنا محمّد ﷺ (أوسًا وخزرجًا) ثمّ توحّدوا به ﷺ، وعلى العكس من ذلك بنو إسرائيل، ومن هنا فإنّنا لا نقول بوجود ترادف بين لفظة (بني إسرائيل) ولفظة (يهود)؛ إذ الأولى يغلب عليها الطابع القومي وقد تُرادفُ أهلَ الكتاب، والثانية تسمية خاصة بمن مال منهم عن الحق وكفروا بعيسى عليه السلام ورسالته.

٢٢ ـ **تشابه توضيحي**: بين آيات البقرة الأولى، وآيات لقمان الأولى، وقد ساهم هذا التشابه في ترجيح رأي على آخر؛ ذلك أنّ الدكتور عبد الله درّاز قال بخصوص آيتي (٤، ٥) في البقرة بأنّ الواو للاستئناف وليس عطفًا على صفات المتّقين السابقة عليهما، وكنت قبل الاطّلاع على هذا الرأي أرى أنّ ما في آية (٤) من الأوصاف تابع لما قبله ومعطوف عليه، وأنّ قوله في آخر الآيات: ﴿أولئك على هدًى من ربّهم﴾ تأكيدٌ لما في أوّل السورة ﴿هدًى للمتّقين﴾، مع زيادة ذكر الفلاح، وهذا التأكيد يشبه ما في آية (١٧٧) البقرة التي بُدئت بوصف الأبرار الحقيقيين ثم أُنهيت بـ ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتّقون﴾، ولقد تردّدت عندما قرأت رأي «درّاز» في الترجيح، وبقيت حائرًا في الأمر حتى وقفت على آيات لقمان، والتي تتطابق في حروفها مع آيات البقرة، فانقدح في نفسي في الحال أنّ آيات لقمان هذه تعطي الترجيح القاطع للمعنى المتبادَر والمعهود بين الناس عامّةً ومتعلّمين، وتُبقي السياقَ متّصلاً من أوّله إلى آخره من غير تفكيك، وذلك أنّ ما في آية (٥) من سورة لقمان راجع إلى المتّصفين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيقان بالآخرة، حيث قد جمعت بين ما في آيتي (٣، ٤) من سورة

البقرة، مع زيادة صفتين أُخريين في سورة البقرة، ولعلّ الحكمة في ذلك أنّ سورة البقرة مدنية، وسورة لقمان مكية بمعنى أنّ سورة البقرة نزلت في جو يختلف عن جو سورة لقمان، من جهةِ أنّ الأولى تخاطب في قسمٍ كبير منها بني إسرائيل لأنّهم غدوا يشكّلون قطاعًا كبيرًا ومهمًّا من تركيبات المجتمع المدني لكونهم أهل كتاب وكونهم معنيين بالرسالة الإسلامية، ومن هنا جاء الاشتباه أيضًا عند المفسّرين[1].

٢٣ ـ تشابه بين آيتين في سورة الملك (٢٣، ٢٤): ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾، وبين آيتين في سورة المؤمنون (٧٨، ٧٩): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾؛ لاحظ تغيير التعبير بين ﴿أنشأكم﴾ و﴿أنشأ لكم﴾، و﴿جعل لكم﴾ و﴿أنشأ لكم﴾، وفرق آخر: ورود التعبير بـ ﴿هو﴾ في المؤمنون، بدون ﴿قل﴾ مع أنّ المعنى واحد؛ وإنّما تغير الأسلوب تبعًا لمقتضيات المقام.

٢٤ ـ سورة النحل افتُتِحت بالنهي عن الاستعجال واخْتُتمت بالأمر بالصبر، وسورة الإسراء افتتحت بالتسبيح وختمت بالتحميد، والتشابه هنا بين بداية ونهاية كُلٍّ من السورتين.

وبعد الإسراء جاءت الكهف مبتدئة بالحمد متشابهة مع خاتمة الكهف، كما أشبهت أوّل الإسراء في وصف النبي صلّى الله عليه وسلّم بالعبودية ﴿أسرى بعبده﴾،

---

(١) الغريب أنك حين تقرأ في كتاب «النبأ العظيم» تحليله لسورة البقرة وما قاله عند كلامه عن المقصد الأول / ص١٧٤، ثم ما قاله في الخاتمة ص٢٠٩/ ٢١٠، تجد أنه قد قال ما يتفق مع التفسير المعهود.. وهو كون الآيات كلها من ١-٥، متحدة الغرض والموضوع؛ وإن المراد بالموصوفين فيها هم مؤمنو المسلمين وأمة محمد ﷺ.

﴿أنزل على عبده الكتاب﴾ ولعلّ هذا يساهم في كون الإسراء بالروح والجسم معًا.

٢٥ ـ من أوضح مظاهر السياق القرآني العام تكرّر ورود مجموعة من القصص القرآني بترتيب مطرد: قوم نوح، ثم قوم هود، ثم قوم صالح، ثم قوم لوط، ثم قوم شعيب، ثم قوم موسى عليهم السلام بدءًا بالأعراف وبعدها سورة يونس، ثم سورة هود... إلى غيرها من السور. ومن فوائد ذلك أنّنا يمكن فهم المحذوف المشار إليه بالرجوع إلى المتّصل كما في الأعراف وهود، وإليك أمثلة لتوضيح ذلك:

أ ـ في سورة يونس بعد أن ذكر قوم نوح في الآيات (٧١ ـ ٧٣)؛ قال: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾، ثم قال: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾؛ فبالرجوع إلى سياق آيات الأعراف أو هود نعرف مَنْ هؤلاء المشار إليهم في الضمائر (من بعده)، (من بعدهم).

ب ـ في سورة إبراهيم آية (٩): ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ... ﴾ ؛ وبعض هؤلاء يمكن معرفتهم بالرجوع إلى سياق الأعراف وهود.

ج ـ في سورة الإسراء آية (١٧): ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ... ﴾ بالرجوع إلى سياق الأعراف وهود يمكن معرفة بعضهم.

ـ وهناك سور كثيرة ذكرت أمة أو أكثر ثم أحالت على السور التي فَصَّلت في ذكر هؤلاء نوعَ تفصيل مثل آية (٢٥) في فاطر: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾، وفي النور آية (٣٤): ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ ﴾.

ـ وفي الأحقاف آية (٢١): ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ...﴾.

ـ وفي القصص آية (٤٣): ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

ـ وبمقارنة هذه السياقات بعضها ببعض يَسْهُلُ معرفةُ المحذوف كما قدمت، ففي سورة المؤمنون بعد أن ذكر قوم نوح في الآيات (٢٣ ـ ٣٠)، قال: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرنًا آخرين...﴾، وبعدها: ﴿فأرسلنا فيهم رسولاً منهم﴾. فهل يمكن معرفة هذا القرن، ومن ثمّ الرسول الذي أُرسلَ فيهم إلاّ بالرجوع إلى السياقات التي ذكرت الأمم بعد قوم نوح بالترتيب، تفصيلاً أو إجمالاً، ومن مواضع الإجمال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ...﴾ إلخ الآيات من (٤٢ ـ ٤٤).

٢٦ ـ في مبحث «أعمالي السياقية» عقدت مقارنة بين سورتي الروم والعنكبوت، حيث أبرزت مواضع التشابه بين كل منهما، وكذا بين سورتي القصص والعنكبوت، وبين سورتي البقرة وآل عمران، وبين الشورى والزخرف، وإليك ما بين هاتين الأخيرتين:

أ ـ كلاهما بدأ بـ﴿حمٓ﴾؛ أي هما من عائلة آل حم (الحواميم).

ب ـ في الزخرف آية (٤٣): ﴿... إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وفي آخر الشورى (٥٢): ﴿... وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ولاحظ التكامل بين الآيتين؛ حيث إنّ آية الزخرف تكمّل آية الشورى بمعنى أنّ الاهتداء إلى الصراط المستقيم مشروط فيمن

يدعو إليه أن يكون هو على صراط مستقيم، مثل ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾.

ج ـ التشابه في آيات الرزق وتوزيعه بحسب الحكمة في الشورى آية (٢٧): ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ وهذا المعنى موجود في الزخرف آية (٣٣): ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ...﴾ إلخ.

د ـ التشابه في موضوع النسل: في الزخرف آية (١٢): ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا ...﴾، وفي الشورى تعرّض لذلك بتفصيل أكثر في آية (١١)، وفي آخرها آية (٤٩، ٥٠): ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا ...﴾.

هـ ـ الإشارة إلى عربية القرآن في السورتين: الآية الثالثة من الزخرف: ﴿جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾، وفي الشورى آية (٧): ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾.

و ـ في الشورى توجيه للنبي ﷺ بخصوص الدعوة؛ في آية (١٥): ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ﴾، وفي الزخرف آية (٤٣، ٤٤): ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾.

ز ـ الإشارة إلى رسالة عيسى عليه السلام في الشورى باختصار ضمن التعرض لأولي العزم، وكون نبيّنا منهم، واشتراك رسالاتهم في الأمور الأساسيّة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا ...﴾، وفي الزخرف تعرّض لرسالة عيسى عليه السلام في مواضع عدّة ـ حوالي خمس آيات ـ.

ح ـ ذكر الفلك في السورتين: في الشورى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ ...﴾،

وفي الزخرف في تضاعيف آية (١٢).

ـ وفي مبحث التكامل ذكرت الشبه بين سورتي العصر والتكاثر، وبين الانفطار والانشقاق، وبين المدثر والمزمل، وبين الجاثية والدخان، وبين الانشقاق والبروج والانفطار والمطففين.

ـ كما عقدت مقارنة بين سورتي الواقعة والرحمن المتجاورتين، وبيّنت مظاهر التكامل بينهما ومواضع التشابه؛ وذلك في مبحث التكامل، وكذلك أوردت مواضع الشبه بين سورتي التوبة والأنفال أيضًا في مبحث التكامل، كما أوردت مواضع تشابه بين سور متجاورة في مبحث (أعمال سياقية)، وبين الفيل وقريش في مبحث التكامل، وكذا بين المعوذتين والإخلاص والكافرون في مبحث التكامل، وبين الفلق والناس نقلاً عن غيري في مبحث التكامل.

وإجمالاً: فإنّني قد أشرت في موضع آخر من هذه السلسلة إلى أنّني قد أجريت دراسة شاملة للقرآن كله بيّنت فيها مواضع التشابه بين كل سورتين متجاورتين بدءًا بالفاتحة وانتهاءً بسورة الناس، مع وجود فوارق في عدد مواضع التشابه بين ما هو مكّي وما هو مدني؛ وذلك بحسب ترتيب المصحف، حيث نجد سورة مكية بجوار سورة مدنية كالمائدة والأنعام، فهاتان السورتان تَقِلُّ مواضعُ التشابه بينهما لأنّ سورة المائدة مدنية يغلب فيها ما هو غالب في جميع السور المدنية؛ أي التعرض للتشريع، وبيان أحكام المعاملات والتصرفات والعبادات المختلفة، بينما سورة الأنعام مكيّة يغلب عليها كما في سائر السور المكية مناقشة جوانب الاعتقاد والسلوك المرتبط به، مع قليل من التشريعات (عبادات ومعاملات)، ونجد هذا التشابه بين كل سورتين متحدتين في النزول ـ بين مكي ومدني ـ يحتل مواضع أكبر مما هو بين السورتين المتجاورتين عند اختلاف موضع نزولهما بين مكي ومدني.

وهناك سبب آخر للاختلاف وهو طبيعة الترابط بين الآيات؛ فإنّه في المكية أكثر تجانسًا ووضوحًا منه في المدنية.

وفي كل حال فإنّ هذه الظاهرة لا تخلو من دلالة إعجازية تُضم إلى سائر وجوه الإعجاز القرآني؛ لأنّ القرآن يغدو من هذه الناحية كلامًا واحدًا متّصلاً كحلقات في سلسلة واحدة أوّلها الفاتحة وآخرها الناس، أو على رأي الزمخشري: أوّلها الحمد وآخرها الاستعاذة.

٢٧ ـ إليك هذا النموذج الجامع بين التكامل والتشابه بين عدة سور متجاورة في النزول وليس في الترتيب:

أ ـ سورة النبأ ذكر أنّها نزلت بعد المعارج، وقد بُدئت المعارج بـ ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ ...﴾، كما بدئت النبأ بـ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ...﴾ ، واختلف في تفسير النبأ ولكن سياق المعارج يقطع الخلاف ويبيّن أنّه يوم القيامة. والسياق في سورة النبأ كله حول يوم القيامة.

ب ـ سورة الفجر نزلت بعد سورة الليل، وهو كما ترى نُزولٌ مطابق للواقع، ولعلّ في ذلك تكمن حكمة ذكر الليل في الفجر أكثر من مرة.

ج ـ سورة النصر نزلت بعد التوبة، والتوبة بعد غزوة تبوك. وغزوة تبوك تمّ فيها النصر للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالرعب، فجاءت سورة النصر في وقتها المناسب، ثم أمر آخر: في سورة النصر ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾، وهذا هو ما حصل بعد انتصار المسلمين في تبوك على أقوى دولة في العالم آنذاك بدون قتال.

د ـ سورة الضحى بعد سورة الفجر: وذلك مطابق للواقع، ولعلّ في ذلك إشارة إلى أنّ فجر الأمة الإسلامية بنزول القرآن الذي سمّاه الله نورًا ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ آخر الشورى، وذلك في عهده صلّى الله عليه وسلّم ثمّ يأتي الضحى وهو امتداد للنبوة

في حياة الأمة الإسلامية: النبوة، ثم الخلافة الراشدة. وقد رأينا أنّ نور الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين علا واتّسع كنور الضحى.

٢٨ ـ تشابه بين سورتين متجاورتين (التحريم والطلاق):

أ ـ محور كل منهما مشكلة زوجية أو أسرية.

ب ـ تحريم النبي صلّى الله عليه وسلّم ما أحلّه الله له يشبه الطلاق من حيث إنّ الطلاق نوع من التحريم لما أحلّ الله له.

ج ـ الإخبار في كل منهما بعلم الله المحيط، وأظهره الله عليه رغم كونه سرًا ـ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ ـ كما لاحظ ذلك البقاعي.

د ـ إذا استحضرت قصة اعتزاله صلّى الله عليه وسلّم لنسائه بهذه المناسبة ثمّ تخييرهنّ كما في آية الأحزاب (٢٩)، ازدادت صورة الشبه وضوحًا.

هـ ـ كُلٌّ من السورتين قد اشتملت على ١٢ آية.

و ـ كل منهما افتُتحت بخطاب النبي صلّى الله عليه وسلّم مع أنّ ما في الآيات بعد ذلك شامل للأمّة.

ز ـ في سورة التحريم ورد التهديد بالطلاق.

ح ـ ذِكْرُ النور في كل منهما: آية (١١) الطلاق: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وفي التحريم آية (٨): ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ ...﴾.

ط ـ الوعد لمن تاب توبة نصوحًا بالإدخال في جنات تجري من تحتها الأنهار في التحريم، وفي الطلاق الوعدُ بمثل ذلك لمن آمن وعمل صالحًا.

ي ـ في التحريم تهديد، وفي الطلاق تهديد: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا ﴾. وبالتأمّل نجد أنّ قوله ﴿ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ وتظاهرا عليه يتضمنان نوعًا من العتو عن أمر الرسول عليه السلام.

وبالتدبر الأعمق يمكن العثور على مواضع شَبهٍ أخرى غير هذه الوجوه العشرة.

٢٩ ـ بين آية الأنعام (٢٥): ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا... ﴾ إلخ الآية، وبين آية الكهف (٥٧): ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾.

فأنت ترى في كل منهما سببَ جعلِ الأكنّة على القلوب والوقر في الآذان وهو الإعراض عن آيات الله وعدم الإيمان بها، وإنْ عَسُرَ عليك ترتيبُ الأمور في آية الأنعام تجد ذلك أكثر وضوحًا في آية الكهف:

ـ **أوّلاً**: الإعراض عن آيات الله وارتكاب المعاصي.

ـ **ثانيًا**: تَولّد عن ذلك الأكنّة والوقر.

ـ **ثالثًا**: لن يهتدوا بعد ذلك أبدًا ولو استمعوا كما في آية الأنعام ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾؛ لأنّهم فقدوا أهلية الاستماع الإيجابي الموصل إلى الحق، كما ورد في آية الأنفال (٢٣): ﴿... وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾، وبهذا الفهم التكاملي نُسْلَمُ من الوقوع في أوهام الجبرية.

٣٠ ـ بين مقطعين: **الأوّل**: من سورة الأنبياء من آية (٦٦ ـ ٧٢): ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا

تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾. والثاني: من سورة الصافات الآيات (٩٥ ـ ١٠١): ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾:

أ ـ فنحن نرى أنّ آية الصافات زادت في بيان كيفية التحريق الوارد في آية الأنبياء.

ب ـ في أحد المقطعين ﴿فجعلناهم الأسفلين﴾ وفي الثاني ﴿الأخسرين﴾؛ وهنا نذكرك بما في سورة التين: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين إلاّ...﴾، وما في سورة العصر: ﴿إنّ الإنسان لفي خسر إلاّ...﴾؛ ممّا يبيّن المقصود من ﴿الأسفلين﴾، وإن كان ذلك لا يمنع من إرادة النار لأنّها في الأسفل في مقابلة الجنة التي هي في الأعلى.

ج ـ في آيات الصافات، ورد أنّه عليه السلام دعا الله تعالى عند خروجه من العراق مهاجرًا أن يرزقه ذرية صالحة ولم يذكر ذلك في آيات الأنبياء.

د ـ في آيات الصافات: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾، وفي آيات الأنبياء أوضح من ذلك: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾؛ وهي بلاد الشام، ومنها فلسطين والأردن، وهنا نلاحظ أنّ عقد المقارنة بين المقطعين بخصوص الموهوب له عليه السلام قد يوقع في إشكال؛ لأنّه في سورة الصافات قال بعد قوله ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾، كما قال في الأنبياء: ﴿وَوَهَبْنَا

لَهُۥ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾، مما قد يوهم بأنّ المبشَّر به هو إسحاق، ولولا أنّنا مضينا مع سياق آيات الصافات حتى آية (١١٢) ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ ... ﴾ بعد آية (١٠١) ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾؛ مما يعني قطعًا أنّ المبشَّر به أولاً هو غير إسحاق.

أقول: لولا ذلك لكانت نتيجة المقارنة بين الآيات المذكورة في السورتين أن المبشّر به إسحاق ولعلّ ذلك هو ما أوقع شيخ المفسرين الطبري في هذا الوهم فرجّح أنّ المبشّر به إسحاق، الأمر الذي يؤكّد دقة التعامل مع السياق[1].

٣١ ـ من مظاهر التشابه بين السور المتجاورة ورود ثلاث سور متجاورة بأسماء أنبياء (يونس، هود، يوسف)، ويلاحظ أنّ سورة هود قد وقعت بين يونس ويوسف، وهما من أنبياء بني إسرائيل، بينما هود من أنبياء العرب، ثم بين يونس ويوسف شبه فيما جرى لكل منهما: من محنة غيابة الجب وغيابة الحوت، ويونس أُرسل إلى بلده بعد الخروج من محنته فأسلم منهم عدد كبير، ويوسف بعد الخروج من محنته أصبح السيد المطاع في مصر وأسلم على يديه كثيرون من بني إسرائيل وغيرهم.

وهناك أمر مشترك بين هذه السور الثلاث وهو أنّ آخر كل منها قد تضمّن توجيهات للنبيّ ﷺ تَحُثُّه على الصبر والتوكّل على الله تعالى، مقترنًا بالثناء عليه سبحانه مع بيان قدرته على حفظه ونصرته.

ولاحظ أنّ يونس ويوسف على وزن الفعل، وإذا وضعنا همزة على الواو في كل منهما صار فعلاً: يؤنس، يؤسف. وعند ذاك يحصل لهما معنيان متضادان لكن كل منهما مناسب لما جرى لهما، فقصة يونس مع قومه من شأنها أن تدخل الأنس على نفوس

---

(١) تناولت هذا الموضوع في فقرتين من مبحث التكامل السياقي لكن في كل فقرة من جوانب أخرى؛ فلا تكرار.

العصاة، وتفتح لهم باب الأمل بقبول التوبة إضافة إلى أنّ الله تعالى أمّنه في بطن الحوت، وكان فيه يتشاغل بذكر الله ويأنس به، وبعد أن نُبذ بالعراء أنبت الله عليه شجرة من يقطين تقيه شر الحشرات التي قد تؤذي جسمه الغض وتدخل الأنس عليه.

بينما قصة يوسف عليه السلام يخيّم في أجوائها من أوّلها إلى آخرها الأسف إذ كان ينتقل من حزن إلى حزن، وينقل معه أباه: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾، ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وأمّا قصة هود فإنّها تتراوح بين الأنس والأسف: ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾، وفيها: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾، وفيها: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وفيها: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾.

٣٢ـ بين ثلاثة مواضع من القرآن الكريم:

أ ـ مثنى وثلاث ورباع في أوّل سورة النساء بخصوص عدد من يجوز للمسلم جمعهنّ معًا من الزوجات.

ب ـ مثنى وثلاث ورباع في أوّل سورة فاطر بخصوص عدة أجنحة الملائكة...

ج ـ مثنى وفرادى في آية (٤٦) من سورة سبأ المجاورة لسورة فاطر[1].

والآية الأخيرة متّفق فيها على أنّ المراد من مثنى وفرادى: اثنين اثنين، وواحدًا واحدًا، ولم يُخالِفْ في شأنها أحد، وهنا يقال: لا فرق بين هذه الصيغة «المتّفق في شأنها»

(١) تلاحظ أنّني أحرص باستمرار على ذكر صفة التجاور بين السورتين المتجاورتين تذكيرًا وتأكيدًا لنظرية التشابه بين كل سورتين متجاورتين ليتأكّد هذا المعنى في الذهن لما له من الأهميّة الكبيرة.

عربيًّا، وبين الصيغتين الأخريين؛ من جهة أنّ المراد في كلّ منهما: زوجتين زوجتين أو ثلاثًا ثلاثًا... إلخ، ويبقى السؤال: لماذا لم يقل مثنى أو ثلاث؟ الجواب: هذا هو الأسلوب المتّبع عند العرب في مثل هذه الحالات.

٣٣ ـ تشابه بين سورتي المزمل والمدثر المتجاورتين:

أ ـ في أولهما تهيئة النبي ﷺ للدعوة والاستعداد للنهوض بأعبائها الجسيمة: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾؛ تهيئة روحية، ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾؛ بدايات الدعوة.

ب ـ ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ في المدثر، ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ في المزمل.

ج ـ في المدثر: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾، وفي المزمل: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

د ـ في المدثر: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾، وفي المزمل: ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾.

هـ ـ كلاهما اشتمل على ذكر أرقام: في المدثر ١٩، وفي المزمل مجموعة كسور.

و ـ في المدثر: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾، وفي المزمل: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾.

ز ـ بينهما تكامل في المعنى بحيث يتكون من مجموعهما الفهم الصحيح لعقيدة القدر وهي «حدود إرادة الإنسان»؛ ففي المزمل: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾، حيث تنسب المشيئة إلى الإنسان في اختيار طريقه، بينما في المدثر: ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، بعد ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾.

ح ـ في المزمل: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾، وفي المدثر: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾.

ط ـ التزمل والتدثر متحدان في المعنى، والخطاب بهما للتَّحبُّب من جهة،

والتلطف في الخطاب من جهة أخرى، وللتذكير بأنّ ذلك يتنافى مع مسؤوليّات القيام بالدعوة وأن وقت النوم والراحة قد انتهى.

ي ـ في المزمل ذكر لفرعون وعصيانه: ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾، وفي المدثر ذكر لأحد فراعنة قريش الوليد بن المغيرة.

ويمكن للمتعمّق أن يجد غير هذه الوجوه العشرة؛ والله الهادي إلى سواء السبيل وعنده مفاتح الغيب، ومفاتح العلم.

٣٤ ـ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ...﴾ الأعراف (١٨٤).

ـ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ...﴾ سبأ (٤٦).

ـ ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ التكوير (٢٢).

ـ ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ القلم (٢).

ـ وفي النجم: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

لاحظ ما يلي: التركيز على وصف الصحبة في الآيات لتذكيرهم بكونهم يعرفونه عن قرب فقد عاش بينهم فترة طويلة كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الآية (١٦) من سورة يونس، وكيف يصير مجنونًا بعد اكتمال عقله؟!

وأمر آخر: إنّ هذه الرسالة العظيمة لا يصلح لها إلاّ من اكتمل عقله ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾.

ثم لاحظ كيف نفى عنه صلّى الله عليه وسلّم أيّة شبهة من جن «جِنَّة»؛ فهي نكرة في سياق النفي فتشمل جميع أشكال ودرجات الجنون، وكأنّ ذلك الأسلوب تذكير لهم بواقع ما يعرفونه عنه صلّى الله عليه وسلّم من كمال العقل والحكمة حيث عرفوا ذلك منه، ووقع اختيارهم عليه عندما ضاقت بهم الحيل وكادوا يقتتلون عند الحاجة إلى وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة، يضاف إلى ذلك ما ذكرته خديجة رضي الله عنها في وصفه عندما أبدى تخوّفه أمامها مما اعتراه في الغار والظن بأنّ ذلك لوثة الْتاثَ بها عقلُه، فوصفته بما ينفي عنه أيّة شائبة مما ساوره من هذه الظنون، ثم أكّد ذلك ورقة ابن نوفل ولم يكن على دينه؛ كما كان على علم جَمٍّ بما في كتب أهل الكتاب.

٣٥ ـ في سورة التوبة آية (٧٢): ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وفي سورة الصف آية (١٢): ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ...﴾.

لاحظ كيف يؤثر السياق في المعنى، ويتأثّر به في النظم؛ ففي آية التوبة زادت بذكر ما هو أعظم من نعيم الجنة وهو «رضوان الله»، والظاهر أنّ إدخال ضمير الفصل هنا في آية التوبة (هو) لمناسبة ما زيد من رضوان الله تعالى، ثم إنّ آية التوبة ذكرت الخلود في الجنة، بخلاف آية الصف، ولكن في المقابل زادت سورة الصف في الجزاء أمرًا دنيويًا عاجلاً وهو: الوعد بالنصر والفتح القريب، ذلك أنهم عند نزول سورة الصف كانوا في حاجة إلى هذا، فكان ذلك عوضًا عن الإسهاب في وصف نعيم الجنة، لكن ما في سورة التوبة جاء بعد تحقق النصر والفتح في داخل الجزيرة العربية وخارجها على جميع أعداء الإسلام والمسلمين، وهكذا نجد التناغم والتكامل بين السياقين مع ما فيهما

من التشابه الكبير.

وهنا نذكر بأنّ التشابه رغم كثرته في القرآن إلاّ أنّه ليس من قبيل التكرار والتأكيد، وإنّما هو التناسق الذي يقتضيه المقام، ويستتبعه الغرض الرئيس في كل سورة والجو العام الذي يحيط بها من خارجها ويلونها من داخلها؛ وهكذا نجد أنّ كل حرف، فضلاً عن الكلمة والجملة والآية والمقطع في السورة، لا بدّ أن يكون له مقتضاه في كل سورة عَرفَ ذلك مَنْ عرفه أو بقي سرًّا مكنونًا حتى يأذن الله تعالى بكشفه وفوق كل ذي علم عليم.

٣٦ ـ قد لا يكون التشابه بين الآيتين والمقطعين واضحًا بمجرد النظر والقراءة، كما سبق لذلك أمثلة، بل يكون دقيقًا بحيث يحتاج إدراكه إلى مزيد من التأمّل والتحليل، ومن ذلك أنّني لاحظت وجود ارتباط من نوع ما بين ما ذكر عن الأيتام والنكاح في سورتي البقرة والنساء؛ فآية (٢٢٠) من سورة البقرة في الأيتام وبعدها مباشرة في النكاح، وفي النساء بعد الكلام عن حقوق الأيتام جاء الكلام عن النكاح، وليس من الصعب أن ندرك الحكمة من الاقتران بين اليتيم والنكاح، ذلك أنّ اليُتْمَ لا يكون إلاّ بعد الزواج ووفاة أحد الزوجين أو كليهما. وفي سورة البقرة جاء الكلام عن تحريم التناكح بين المؤمن والمشركة والمناسبة في ذلك ظاهرة؛ وهي أنّ مثل هذا النكاح لو تمّ أو أجيز، ثمّ حصل اليتم بسبب موت المسلم منهما فسوف يؤثّر ذلك حتمًا على اليتيم في دينه وسلوكه، وأمّا في سياق النساء فعدم تقييد عدد الزوجات سيؤدّي إلى كثرة الأيتام وظلمهم، وظلم زوجة الأب في الغالب معروف، وكثرة الأيتام في الأمة ناشئة عن تعدّد الزوجات بدون أي ضابط أو مراعاة للأحوال المادية ومستلزمات التربية الصالحة.

٣٧ ـ إليك هذا التشابه بين سورتي الإسراء والفرقان[1]:

١ ـ آية (٤٨) من الإسراء: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾؛ تطابق حرفيًّا آية (٩) من الفرقان.

٢ ـ الوزن التذييلي (الفاصلة) فيهما واحد، على وزن (فعيلاً) أو (فعولاً)؛ ـ أي الغالب في ذلك ـ حتى كأنهما سورة واحدة.

٣ ـ تكرار كلمة (سبيلا) في تذييل آياتهما.

٤ ـ في كل منهما وصف النبي ﷺ بالسحر: ففي الفرقان آية (٨): ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾، وهذا القول ورد في السورتين قبل الآيتين المتطابقتين فيهما مباشرة: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ ... ﴾ ؛ ففي الإسراء آية (٤٧) ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ... ﴾، ثم انظر كيف ضربوا... إلخ.

٥ ـ سورة الإسراء أكثرت من ذكر القرآن، وأنهت ذلك بكلمة فرقناه قُربَ آخرها، بينما سورة الفرقان ذكرت الفرقان في أوّلها.

٦ ـ تجاهل اسم الرحمن ـ من قبل المشركين ـ في السورتين:

في الإسراء ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ... ﴾ إلخ، وفي الفرقان آية (٦٠) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾.

٧ ـ في سورة الفرقان آية (٣٢): ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً

---

(١) ذكروا أنّ رقم الفرقان في النزول؛ أي رقم ترتيبها النزولي هو (٤٢) بينما رقم الإسراء هو (٥٠)، فهما متقاربتان في النزول؛ ومن العجيب أنّ هذا الفرق بينهما في ترتيب النزول هو مطابق للفرق بينهما في ترتيب المصحف.

وَحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾، وفي الإسراء (١٠٦): ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾؛ فهما متكاملتان في بيان الحكمة من نزول القرآن مُنَجّمًا.

٨ ـ إذا حسبت الفرق بينهما في ترتيب المصحف تجد أنّه سبعة، وكذلك الفرق بينهما في ترتيب النزول من (٤٢) إلى (٥٠) هو أيضًا سبعة[1]!!

٩ ـ في سورة الإسراء في آخرها: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ... ﴾، وفي الفرقان في أوّلها: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾.

١٠ ـ أوّل آية الفرقان ذكرت النبي بوصف العبودية: ﴿ نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾، وأوّل الإسراء ذكرته أيضًا بهذا الوصف: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾.

١١ ـ الآيتان (٧، ٨) من سورة الفرقان تتشابهان مع الآيات من (٩٠ ـ ٩٣) من سورة الإسراء، فيما اقترحه الكفّار على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من الإتيان بالأدلّة الحسّية على صدقه.

١٢ ـ في الإسراء آية (٩٢) طلب الكفّار إنزال الملائكة للشهادة على صدقه صلّى الله عليه وسلّم، وفي الفرقان آية (٧) وآية (٢١) كذلك.

١٣ ـ في الإسراء آية (٩٢): ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ ﴾، وفي الفرقان آية (٢١): ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾.

١٤ ـ في سورة الفرقان آية (٦٧) ذم التقتير، وكذا في سورة الإسراء، ومدح

---

(١) رقم سورة الإسراء الترتيبي ١٧ ـ والفرقان ٢٥.

التوسط بين التقتير والإسراف في الإنفاق.

١٥ ـ في الإسراء آية (٩٨): ﴿...وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾، وقد تكرّر ذلك في آية (٤٩) بنفس الألفاظ، وفي الفرقان من آية (١١ ـ ١٧) هو عن تكذيبهم بالبعث وبعض مشاهد القيامة.

١٦ ـ في كلتا السورتين كثر الحديث عن القرآن والنبي ﷺ.

١٧ ـ كلتا السورتين تعرّضتا للإخبار عن موسى عليه السلام والتوراة؛ آية (٣٥) في الفرقان وآية (٣٢) في الإسراء، وبعد التذكير بموسى والتوراة فيهما جاء التذكير بنوح عليه السلام؛ آية (٣) في الإسراء، وآية (٣٧) في الفرقان.

١٨ ـ في الإسراء تناول آية الليل والنهار، والحكمة من تعاقبهما وكذا في الفرقان آية (٦٢).

١٩ ـ كلاهما تحدّث عن وحدانيّة الله وعبادته وحده: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ...﴾ في الإسراء، وفيها أيضًا تكرّر قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، وفي الفرقان تعرّض لهذا الموضوع في أكثر من موضع: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

٢٠ ـ من صفات عباد الرحمن في الفرقان: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾، وفي الإسراء: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾ آية (٣٧).

٢١ ـ في الإسراء آية (٣٢، ٣٣): النهي عن الزنا وقتل النفس، وكذا في الفرقان في صفات عباد الرحمن.

٢٢ ـ ثم ألا يبلغ منك العجب قمّته حين تعلم أنّ آخر آية في سورة الفرقان

(٧٧): ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾؛ أي: فسوف يكون جزاء التكذيب لازمًا لكم ـ هزيمتهم يوم بدر أو عذاب الآخرة ـ (زبدة التفسير ص٤٧٩).

أقول: حين تكون آخر آية في الفرقان شبيهة بآية (٧٧) من سورة الإسراء: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾؛ وهي تتحدّث عن قوله قبلها في حق مشركي قريش ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾؛ قال في الزبدة (ص٣٧٥): إنّهم إذا أخرجوا نبيّهم من بين أظهرهم أو قتلوه ينزل العذاب بهم.

٢٣ ـ طلب المشركين إلقاء كنز يستغني النبي ﷺ به عن الضرب في الأرض والمشي في الأسواق لطلب الرزق؛ آية (٨) الفرقان، وفي آية (٩٣) الإسراء ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾.

٢٤ ـ أو أن يكون للنبي جَنَّةٌ يأكل منها؛ آية (٨) الفرقان، وآية (٩) الإسراء.

فالمراد في الآيتين وفي الموضعين: أنّ العذاب سُنَّةٌ ثابتة للمكذِّبين لرسلهم فسوف يكون لِزامًا، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾؛ المعنى واحد فسبحان منزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا.

إلى آخر هذه المواضع التي سيظهر منها المزيد لمن يزيد في التأمّل والتدبّر؛ والله يفتح ما شاء لمن يشاء. ونحن إذا أردنا أن نتلمّس الحكمة من وجود هذا التشابه الكبير بين السورتين فأوّل شيء يطالعنا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾، وأمر آخر: هو قرب نزولهما من آخر العهد المكي، كما رأينا أنّ بينهما سبع سور فقط؛ إذ فيهما خلاصة لموقف المشركين من الرسالة والرسول، وتعداد أهم الشبهات التي تثار حولهما ومناقشتها والرد عليها، كما نلاحظ أنّ سورة الإسراء فيها إتمام وتفصيل للردود

على ما ذُكِرَ من الشبهات في الفرقان، وبخاصة ما يتّصل بالقرآن؛ إذ تعرّضت لأمور لم ترد في الفرقان منها:

أ ـ وصف القرآن بأنّه يهدي للتي هي أقوم.

ب ـ تحدي الإنس والجن على الإتيان بمثل القرآن.

ج ـ الإخبار بإيمان كثير من أهل الكتاب بالقرآن ممّا يشكّل أكبر برهان على كونه من عند الله تعالى وأقوى حجة على المشركين الذين كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب عند الاشتباه في أيّ أمر من أمور الرسالة.

وهنا نعيد التذكير بالتشابه الرقمي بين السورتين مما يؤكّد التلازم بينهما كأنّهما سورة واحدة:

أ) آخر الفرقان يتطابق رقميًّا ومعنويًا مع آية (٧٧) من الإسراء.

ب) الفارق بينهما في عدد السور وهو سبعة، متطابق مع ترتيب المصحف والنزول.

٣٨ ـ هذا المثال صريح في الاستدلال بالقرآن نفسه على مشروعية الدلالة السياقية؛ وهو قوله تعالى في الآية (٣) من سورة الشورى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾؛ فمما قيل في حيثية التشبيه في قوله ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي كما أوحى إليك في هذه السورة يوحي إليك في سائر السور؛ بل وفي سائر الكتب السماوية وذلك في أصول الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق وما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد[1].

(١) تفسير أبي السعود (ج٥ / ص٢٨).

٣٩ ـ بين جملة في آيتين من سورتين متجاورتين وهما يونس، وهود، والجملة في الآية الرابعة من كل منهما:

أ ـ في أوّل آية من سورة يونس: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ... ﴾.

ب ـ وفي سورة هود في أوّل الآية كذلك: ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ... ﴾ إلخ الآية.

والسر في التأكيد بـ ﴿ جَمِيعًا ﴾ في آية يونس كون الخطاب في السياق من أوّله إلى هذه الآية إلى الناس جميعًا، بدليل ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ... ﴾، بينما الظاهر من سياق سورة هود أن الخطاب لكفّار قريش.

ـ وأمر آخر في التشابه في أوائل السورتين ما في آية (٣) من سورة يونس: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ... ﴾، وآية (٧) من سورة هود: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾؛ ونرى أنّ بينهما تكاملاً على النحو التالي: ثم استوى على الماء، وكان عرشه على الماء، ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً؛ حيث بيّن في آية هود أين كان عرشه قبل خلق السماوات والأرض، ثم بيّن الحكمة من خلق السماوات والأرض، وقد أشير إلى هذه الحكمة أو ما في معناها في سور أخر مثل ما في سورة الجاثية الآية (٢٢): ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾، إذ نتيجة الابتلاء هذا الجزاء، وهذا المعنى نفسه تشير إليه الآيتان (٢٧ ـ ٢٨) من سورة ص: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾؛ فهذا المعنى يلتقي مع قوله: ﴿ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾؛ لأنّ عدالة الله تعالى تأبى أن يجعل الذين آمنوا كالمفسدين في الأرض،

ويجعل المتقين كالفجار، وهكذا نرى المعاني تتتابع في القرآن، يكمل بعضها بعضًا كأنّها في سورة واحدة؛ ولو شئنا الاستمرار في هذا التتابع لامتلأت من ذلك صفحات وصفحات من «التشابه والتكامل».

٤٠ ـ تشابه تكاملي بين ما ورد في آية (١٣٨) من الأعراف: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، وبين ما ورد في آية يونس (٩٠): ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ ...﴾ إلخ الآية، ويمكن أن نضع الآيات (٥٢، ٦٠، ٦١، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦) من سورة الشعراء: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ..... فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

٤١ ـ بين آية (٣٢) من الصافات: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾، وآية القصص (٦٣): ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ...﴾.

قوله: ﴿إِنَّا﴾ في آية الصافات تعليلية، بمعنى أنّنا أغويناكم لأنّنا كنا غاوين؛ أي: إن غوايتكم حصلت بسببين:

أ ـ كوننا غاوين فعملنا على أن تكونوا مثلنا.

ب ـ قَلَّدتمونا فصرتم مثلنا، وآية القصص لا تخرج عن هذا المعنى وإن جاء

التعبير بلفظ آخر.

٤٢ ـ في سورة القلم آية (٥٢): ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، وفي سورة ص الآية (٨٧): ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، وفي التكوير آية (٢٧): ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، وفي يوسف بعض آية (١٠٤): ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، وهناك مواضع أخرى مثل: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ (٥٤) المدثر، وفي آية (١٢٠) من سورة هود: ﴿... وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي الدخان آية (٥٨): ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، وفي الأنعام الآية (٩٠): ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾، وفي الحاقة الآية (٤٨): ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

لاحظ ما يلي:

أ ـ تحديد مقطع الآية توقيفي؛ أي: من الوحي، كما بيّنت ذلك في مبحث الإحالات بصورة أكمل وفي مبحث «الإعجاز في ترقيم الآيات» ج٢.

ب ـ باستحضار آية الأنعام نعرف المقصود من كون القرآن ذكرًا؛ أي ذكرى وتذكرة (بمعنى موعظة وعبرة).

ج ـ تكون إنْ نافية بمعنى ما، ويأتي بعدها إلاّ في الغالب عندما تكون نافية.

د ـ إن الذين يُعتبرون بالقرآن من العالمين هم المتقون فقط، كما قال في مطلع سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، ثم هو مع ذلك تذكير لغير هؤلاء لإقامة الحجة عليهم، وللمتّقين بمعنى أنّهم هم الذين ينتفعون به فقط؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾، ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، في أوّل الأنبياء والشعراء مع بعض اختلاف في اللفظ.

وقد وضح لنا من مقارنة هذه النظائر ببعضها كيف ساهم بعضها في تفسير البعض الآخر، وأكسبت سياق كل منها غنًى وتكاملاً.

٤٣ ـ بين آية محمد رقم (١): ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، وبين آية النحل (٨٨): ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾، وآية النساء (١٦٧): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾؛ فآية محمد اكتفت بالإخبار عن بطلان أعمالهم مهما بلغت، وآية النساء تتضمّن الإشارة إلى سبب بطلان أعمالهم من كونهم قد ضلّوا ضلالاً بعيدًا، فلم يبق لهم إلاّ ما يستحقّون عليه العذاب المضاعف ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ...﴾ ، فأنت ترى أنّه من التشابه التكاملي، حيث أضاف كل سياق إلى الآخر معنى جديدًا.

٤٤ ـ بين آية (٥٧) القصص: ﴿... أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، وآية العنكبوت المجاورة (٦٧): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ...﴾ ، وآية (٩٧) آل عمران: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾، وآية (١٢٥) البقرة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.

فهذه الآيات رغم تشابهها، لكنّها ليست تكرارًا، ففي آية القصص التركيز على الأمن الغذائي، وفي آية العنكبوت، التركيز على الأمن الحياتي بشكل عام، وفي الآيات الأخرى: الأمن مطلقًا. وفي سورة قريش جمع بين الأمنين اللذين في القصص والعنكبوت.

٤٥ ـ في سورة لقمان آية (٢٧): ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾، وفي الكهف آية (١٠٩) جاء

التعبير عن المعنى نفسه بصورة بيانية أخرى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾، ففي سورة الكهف لم يذكر الأقلام التي يكتب بها، وإنّما جاء التعبير خاصًّا بالمِداد فقط، ثم إنّ آية الكهف قد أطلقت حجم المداد المقيد في لقمان بسبعة أبحر، للدلالة على أنّ ذكر السبعة ليس للحصر وإنّما للتمثيل على الكثرة، وهو من أساليب العرب في استعمال لفظ السبعة والسبعين ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ من الآية (٣٢) الحاقة، و﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ...﴾ من آية (٨٠) التوبة[1].

٤٦ ـ في سورة يونس (٥٤): ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ...﴾، وفي الرعد: ﴿والذين لم يستجيبوا له لو أنّ لهم ما في الأرض جميعًا ومثله معه لافتدوا به...﴾، وفي الزمر (٤٧): ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وفي المائدة آية (٣٦): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

لاحظ التكامل المعنوي بين هذه الآيات إضافة إلى التشابه، ففي آية الرعد وآية المائدة بيان للمراد من الظلم في آيتي يونس والزمر، وأنّه الكفر وعدم الاستجابة للرسل والإذعان لأوامر الله تعالى؛ وكذلك فإنّ الآيات الثلاث في الزمر والمائدة والرعد، لم تقتصر على ملكية الأرض وما فيها، وإنّما زادت ﴿ومثله معه﴾، ثمّ إنّ آية المائدة أوضحت المقصود من الافتداء في يونس وفي الرعد، وأنّه لن يقبل منهم في دفع العذاب الأليم.

---

(١) الغريب أنّني قرأت للشيخ الداعية (راتب النابلسي) تفسير الكلمات هنا بكلمات القرآن فقط جوابًا على سؤال وجّه إليه في ندوة: هل هناك كلمات لله غير القرآن؟

٤٧ ـ تشابه تكاملي: بين آية الأنعام (٤٢، ٤٣): ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾، وآية النحل (٦٣): ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

في آيتي الأنعام ذكر مع تزيين الشيطان قسوة القلوب، وهو ما منعهم من التضرّع لله تعالى عند البأس، وفي آية النحل لم يذكر إلاّ تزيين الشيطان، والظاهر أنّ هذا التزيين هو من أسباب قسوة القلب، أو أنّ قسوة القلب تسهّل مهمة التزيين.

٤٨ ـ بين آية (١١١) آل عمران: ﴿ ... وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾، وآية (٢٢) الفتح: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾، المعنى واحد كما ترى، لكن السياق يجعل الأولى في أهل الكتاب والثانية في كفّار قريش وعموم المشركين[1].

٤٩ ـ في سورة الفتح آية (٢٨): ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾، وفي الصف (٩) آخر الآية: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾، وكذا آية التوبة (٣٣)؛ والظاهر أنّ السياق هو السبب، لأنّ آية الفتح وردت ضمن سياق يخاطب مشركي قريش وسائر الوثنيين، وسياق آيتي التوبة والصف يعني أهل الكتاب.

٥٠ ـ في آية (٢٠) الزخرف: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ

---

(١) ورد التعليق عليهما بشكل مفصل في مبحث التكامل السياقي.

عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾، إن أردت معرفة معنى يخرصون؛ فابحث في القرآن عن آية مشابهة تجد المعنى، والآية المشابهة هي آية (٢٤) من الجاثية المجاورة: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾.

٥١ ـ من عادة القرآن أنّه بعد سرد قصة أو أكثر يعقب بما يدلّ على أنّ الغاية الأساسية من هذا الرد: بيان كون القرآن منزلاً من الله تعالى، بدلالة ذكر هذه التفاصيل في أزمان سحيقة من قبل رجل أمّي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، مع عدم وجود مصادر موثوقة للإلمام بهذه المعارف التفصيلية، بل هو يجيء بتصحيحات لما في الكتب السابقة: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ... ﴾ (١٥) المائدة.

ـ ومن أمثلة هذا السرد ما في سورة آل عمران بدءًا بآية (٣٣)، كما ورد ذلك أيضًا في سورة هود، وفي القصص، وفي آخر سورة يوسف، وفي مواضع أخرى أمّا التعقيب فيأتي عادة بعبارة ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ... ﴾ (٤٤) من آل عمران، و﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ... ﴾ الآية (١٠٣) من سورة يوسف، أو بعبارة ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ... ﴾ الآية (١٠٠) هود، أو بعبارة ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٤٤) القصص، و﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ... ﴾ (٤٨) العنكبوت، إلى غيرها من العبارات التي تشير إلى ما في القصص أو القصة من الدلالة الإعجازية ـ إخباريًّا ـ.

أقول: ولكن القرآن لم يجر على هذا الأسلوب في كثير من المواضع، بل قدّم

الإشارة إلى ذلك قبل إيراد القصّة؛ كما في سورة النمل آية (٦، ٧): ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ ... ﴾ إلخ القصة.

وهي كما ترى تعني: أن سردك لقصة موسى دليل على أنّك تُلَقَّى القرآنَ من الله تعالى، وكما في سورة يوسف آية (٣): ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ ... ﴾ إلخ القصة.

وكما في سورة الشعراء بعد انتهاء القصص؛ إذ قال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الآيات (١٩٢ ـ ١٩٧)، وفي سورة ص بدأ بقوله: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ... ﴾ وعندما انتهى من ذكر قصص طائفة من الأنبياء، قال: هذا ذكر، وفي سورة القمر بعد إيراد طائفة من القصص، قال: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ ... ﴾.

هذا وقد استعنت بهذا الأسلوب أو بهذه الطريقة في التعقيب على ذكر القصص بما يشير إلى دلالتها الإعجازية، لإيضاح بعض المواضع التي لا يبدو فيها الارتباط بنفس الوضوح الذي رأيناه في المواضع السابقة، ولذا أوقعتْ المفسرين في تأويلات تبتعد أو تقترب من السياق ومن ذلك الآية (٦٤) من سورة مريم، فقوله تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ... ﴾ إلخ، فلا يظهر اتّصالها بما قبلها، وقالوا في سبب نزولها: إنّ النبي ﷺ سأل جبريل لماذا لا يأتيه مرات أكثر ـ متقاربة ـ فنزلت بمعنى أنّ الأمر ليس بيد جبريل، ولكن هذا لا يغلق باب التساؤل عن وجه ارتباط الآية بما قبلها.

ولقد أعملتُ عقلي متدبّرًا فيما مضى قبل هذه الآية مع الاستعانة بالأسلوب السابق فوجدت توافقًا مع هذا الأسلوب لكنه غامض؛ وهنا أشير إلى أنّ العبارات

الدالّة على الترابط كانت تختلف من سياق إلى آخر، ولذا نجد أنّ السورة بدأت بذكر قصّة زكريّا، ثم يحيى، ثم مريم، ثم عيسى، ثم إبراهيم مع أبيه، ثم إسحاق ويعقوب، ثم موسى وهارون، ثم إسماعيل، ثم إدريس، ثم أشير إليهم بشكل مجمل في آية واحدة وهي (٥٨)[1]، تخلّصًا إلى وصف مَنْ خَلَفَ من بعدهم بما وُصِفُوا به، وبيان جزاء من استُثْنِيَ من هؤلاء إلى آية (٦٣)، ثم جاءت الآية (٦٤) موضع الاشتباه والتساؤل لتكون كأخواتها في السور السابقة، مشيرة إلى أنّ هذه القصص إنّما تنزّل بها جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى.

وقريب من ذلك ما في سورة طه المجاورة لمريم، فبعد سرد قصة موسى عليه السلام مفصّلة من أوّل السورة إلى آية (٩٨)، جاء التعقيب بها في آية (٩٩): ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾، ثم بعد آيات تتّصل بهذا الذكر مع بعض الاستطرادات إلى آية (١١٣)، قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ...﴾ إلخ.

ومن هنا نجد أنّ التشابه في القرآن بمختلف صوره ومجالاته يساهم مساهمة كبيرة في إيضاح أمور غامضة، كما ظهر من الأمثلة السابقة.

أكتفي بهذا القدر من التمثيل على ما في القرآن من تشابه سواء بين آيتين متجاورتين، أو متباعدتين، وبين سورتين متباعدتين، أو متجاورتين، وبين مقطعين في سورتين متجاورتين، أو متباعدتين، مع بيان ما في هذا التشابه من توضيح أو تكميل؛ مما يجلي الفكرة القائلة بأنّ القرآن يفسّر القرآن، وبأنّ القرآنَ سلسلةٌ متواصلة الحلقات، وبأنّ هذا التشابه يصلح دليلاً على مشروعية الدلالة السياقية، وأنّه في ذلك يأتي بعد التكامل والإحالات في درجة الدلالة.

---

(١) ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ...﴾.

هذا وإنّني قد نظرت في كتاب صدر حديثًا (عام ٢٠٠٣م) للدكتور محمد عناية الله أسد سبحانه، تقدم بموضوعه لنيل شهادة الماجستير بعنوان: «إمعان النظر في نظام الآي والسور»؛ وقد خصّ الباب الرابع منه للكلام عن معالم في الطريق؛ أي: الإشارات والملامح التي في القرآن مما يؤيّد وجود التناسب والروابط بين الآيات كأمر ثابت ومطرد.

ثم ذكر من هذه المعالم: تشابه الآيات تحت الفصل الثاني من هذا الباب، قائلاً: ومن تلك المعالم التي تقود الباحث إلى النظم تشابه الآيات، فقد ذكر في وصف هذا الكتاب أنّه كتاب متشابه. وذكر آية (٢٣) الزمر: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ...﴾، ثم قال: فإن اشتبهت علينا آية فلنرجع إلى آية أخرى تشبهها. ثم نقل عن أستاذه عبد الحميد الفراهي في كتابه «دلائل النظام» (ص٩): «في القرآن آيات متجانسات مشتركات في مضامينها، ولكن في بعض منها تفصيل أمر وإجمال أمر، وفي بعضها تفصيل ما أجمل في مثلها، وإجمال ما فصل في غيرها. ثم قال: فاستقص المماثلات تجد معناها وربطها».

هذا وقد استقصيت فسجلت من مواضع التشابه أكثر من أربع مئة موضع تشكّل مع التعليق على كلّ منها مجلدًا ضخمًا، ولذا اكتفيت بهذا القدر هنا؛ لأنّ مقصدي هو إقامة الدليل من خلال هذا التشابه على مشروعية وحجيّة الدلالة السياقية القرآنية، كما فعلت في التكامل والإحالات والإعجاز الترقيمي للآيات، وقد ذكرت في المقدمة أنّني لم أرد ذلك؛ لأنّه سيخرج بنا عن القصد من جهة، ولأنّ القليل هنا يغني عن الكثير، أمّا التكامل والإحالات والارتباطات الرقمية فقد استقصيت معظمها لما في ذلك من إضافة أمور جديدة، إذ إنّ هذه الاصطلاحات الثلاثة لم أجد في أيّ كتاب قبل كتابي هذا مَنْ ذكرها بهذا الاسم، لا في كتاب مستقل، ولا في فصل من كتاب، ولا في

بحث منفرد، وإنّما هي مما فتح الله به عليّ خدمة لكتابه الكريم، ولهذا آثرت أن أورد هنا كل ما قدرت على جمعه منها.

***

الفصل الثالث

دلالة الرواية

أوّلاً: الرواية عن ﷺ:

١ ـ روي أنّ عمر رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ عن الكلالة، فقال له ﷺ: «يكفيك من ذلك الآية التي أُنزلت في الصيف في آخر سورة النساء»، من جامع الأصول في أحاديث الرسول (ج٩ / ص٦١٦ ـ ٦١٧)[1]، والأضواء (ج٤ / ص٦٨٣).

وذكر هذا الخبر في صحيح مسلم: أنّ عمر قال على المنبر يوم جمعة: ما راجعتُ رسول الله ﷺ في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أَغلظَ لي في شيء ما أغلظ لي فيه، حتى طعنَ بإصبعه في صدري، وقال: «يا عمر ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر النساء»، وإنّي إن أَعِشْ أقضي فيها بقضية يقضي بها مَنْ يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن.

عن جامع الأصول (ج٩) وفي (ص٦١٧): جاء رجل إلى رسول الله فقال: يا رسول الله؟ ﴿يستفتونك قل...﴾؟ فقال له ﷺ: «تجزيك آية الصيف». أخرجه الترمذي.

---

(١) قال في شرح الغريب: والآية التي في أوّل النساء نزلت في الشتاء؛ أي آية (١٢): (... وإن كان رجل يورث كلالة...) إلخ. وللعلم فإنّ آية (١٢) هي في الإخوة لأم، وآية (١٧٦) هي في الإخوة الأشقّاء أو لأب.

فأنت ترى أنّه ﷺ لم يشأ أن يفسّرها له ولغيره بما هو معهود؛ وإنّما اكتفى بإحالته على آية أخرى في السورة، وما ذلك إلاّ لأنّه ﷺ علم أنّه إنْ أَحسنَ التدبّرَ والمقارنة بين ما في الآيتين فإنّه سيجد المعنى المقصود في كل منهما، ثمّ إنّه ﷺ قد قصد بذلك تدريب أصحابه ممّن قال الله فيهم: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ... ﴾ آية (٨٣) من سورة النساء، على تفسير القرآن بالقرآن، وإنّي على يقين من أنّه لو كان السائل ممّن يعلم ﷺ أنّه غير قادر على ذلك لفصّل له القول تفصيلاً.

والذي يهمّنا في هذا الدليل أنّه لو لم تكن دلالة السياق القرآني حجة كافية لما اكتفى النبي ﷺ بذلك، إذ هو مأمور بالتبليغ والبيان؛ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ... ﴾ الآية (٤٤) النحل.

وعليه؛ فهذا الفعل منه ﷺ هو نوع من أنواع البيان للقرآن.

٢ ـ النبي ﷺ عندما قرأ آية (ص) التي تخبر عن سجود داود عليه السلام، سجدَ وجعلَ ذلك سنّة لأمّته من بعده، ولما سئل هو عن ذلك، أو سئل ابن عباس: من أين أخذ السجدة في سورة (ص)، فقال: أو ما تقرأ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ..... أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ الآية (٩٠) من سورة الأنعام. فهذه الرواية عن ابن عباس، وروي مثلها عنه ﷺ واضحة في الاستدلال بالسياق القرآني العام على حكم شرعي، والجمع بين موضعين في القرآن.

٣ ـ ومثل هذا ما في سورة طه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾؛ أوردها ابن كثير وذكر لها معنيين؛ الأوّل: صَلِّ لتذكرني، والثاني: أقم الصلاة عند ذِكْرِكَ لي. قال: ويشهد للثاني ما قال الإمام أحمد، ثم ساق السند إلى أنس، عنه ﷺ أنّه قال: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فَلْيُصلِّها إذا ذكرها؛ فإنّ الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ

لِذِكۡرِيٰ ﴾». وورد معناه في الصحيحين[1].

ومعلوم أنّ هذا الفهم مرتبط بما ارتبطت به سنّة سجود التلاوة لآية (ص)، من قوله تعالى في الأنعام ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ آية (٩٠)؛ لأنّ الخطاب في سياق آية طه هو لسيدّنا موسى عليه السلام.

في صحيح البخاري: أنّ مجاهدًا سأل ابن عبّاس من أين أخذ السجدة في سورة (ص)، فقال: أوما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ ..... أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ الآيات من (٨٤ ـ ٩٠)؛ فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ.

٤ ـ الخلاف الذي دار بين النبي ﷺ وعمر بخصوص استغفاره ﷺ على رئيس المنافقين والصلاة عليه، ولا شكّ أنّ عمر رضي الله عنه ما كان به من حُبٍّ للمخالفة، فكم كان يخشى من نزول عذاب به حين يخالف، ولكنّه يكون في مثل هذه الحالات متمسّكًا بدليل قرآني والنبي ﷺ متمسّك بدليل آخر، ويظن عمر أنّه ﷺ قد غفل عن الدليل ـ أي الذي يراه عمر ـ ففي قضية عبد الله والاستغفار له، عمل النبي ﷺ بظاهر ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ ... ﴾ إلخ الآية (٨٠) من سورة التوبة، حيث يُشعِرُ ظاهرها بتخييره ﷺ بين الاستغفار وعدمه، وكانت عادته حين يُخيَّرُ بين أمرين أن يختار أيسرهما وأكثرهما تمشّيًا مع طبيعة الرحمة ومع حكمة الدعوة.

وقال درّاز معقّبًا: اقرأ هذه القصّة برواية الصحيحين وانظر ماذا ترى؟ إنها لتمثل لك نفس هذا العبد الخاضع وقد اتّخذ القرآنَ دستورًا يستملي أحكامه من نصوصه الحرفيّة، وتُمثِّلُ لك قلبَ هذا البشر الرحيم، وقد آنس من ظاهر النص تخييرًا له بين طريقين فسرعان ما سلك أقربهما إلى الكرم والرحمة، ولم يلجأ إلى الطريق الآخر

---

(١) (ج٣/ ص١٤٤).

إلاّ بعد ما جاء النص الصريح بالمنع. (النبأ العظيم ـ ص٢٧).

٥ ـ عندما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ في سورة الأنعام الآية (٨٢)، اشتدّ ذلك على الصحابة رضي الله عنهم قائلين: وأيُّنا لم يقع في ظلم نفسه أو غيره؟ ففسّر لهم الظلم بالشرك عملاً بآية لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؛ وهذا مروي في الصحيحين[1].

فهو ﷺ بهذا التفسير قد استدلّ بسياق قرآني عام.

٦ ـ وعندما أخبر النبي ﷺ بأنّ الناس يُحشرون حُفاةً عراة غُرْلاً...؛ وهو ناظر في ذلك إلى مثل قوله تعالى في الأنعام الآية (٩٤): ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...﴾، ومثل آية الكهف (٤٨): ﴿جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...﴾.

أقول: عندما أُخبر النبي ﷺ بذلك وسمعت بذلك عائشة رضي الله عنها قالت: أينظر بعضنا إلى عورات بعض يا رسول الله؟ ـ أو كما قالت ـ فذكر لها ﷺ آية عبس (٣٧): ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾؛ أي أنّ الهولَ أعظمُ من أن ينظر أحدهم إلى عورة غيره. فهو ﷺ قد أزال إشكالاً عن آيةٍ بما في آيةٍ أخرى، وهو المراد بالاحتجاج السياقي ودلالته.

٧ ـ فسّر النبيّ ﷺ قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ...﴾ من الآية (٥٩) من سورة الأنعام، بآية لقمان (٣٤): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2].

---

(١) مناهل العرفان (ج١ / ص٤٧٧). وأصول الفقه الإسلامي (ص٤٣٠).

(٢) ورد ذلك في حديث أخرجه البخاري. انظر الإكليل للسيوطي (ص١١٨).

٨ ـ قال ﷺ: شيّبتني هود وأخواتها. وفي رواية: هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كوّرت. وفي رواية: وأخواتها من المفصّل. وفي رواية: بزيادة القارعة، وسأل سائل. وفي رواية: بزيادة سورة القمر. وفي رواية جامعة: شيّبتني هود وأخواتها وما فُعِلَ بالأمم قبلي. وفي رواية مكمّلة للسابقة في دلالتها على الجمع بين الروايات، قال الراوي: وذكر يوم القيامة، وقصص الأمم. وفي رواية: إنّ رجلاً سأل النبيّ ﷺ: ما الذي شَـيَّبكَ منه: قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟؟ قال: لا، ولكن قـول ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾[1].

فأنت ترى أنّه ﷺ قد وجد شيئًا مشتركًا بين مجموعة من السور كان له تأثير عميق في نفسه حتى أسرع إليه الشيب، وتلاحظ كذلك أنّ الصحابة رضي الله عنهم حاولوا معرفة هذا الشيء المشترك، وكل ذلك منه ﷺ ومنهم يدور في فلك السياق القرآني العام، ويشهد بمشروعية الاستدلال السياقي وحجّيته.

٩ ـ سئل النبيّ ﷺ عن حكم زكاة الحُمُر الأهليّة، فذكر أنّه لا يجد في الوحي إلاّ آية في سورة الزلزلة، فهو ﷺ ما قال هذا إلاّ بعد استحضار جميع آيات القرآن المتّصلة بهذا المعنى والحكم حتى وقف على هذه الآية، وهي: ﴿ فَمَن يَعْـمَلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَـرَهُۥ ﴾[2]، مشيرًا بذلك إلى استحباب التزكية طلبًا للأجر، وهكذا نقول في جميع ما سُئِلَ عنه، وأَخَّرَ الإجابةَ حتى ينزل في ذلك الوحي، كما في أمر المجادلة، وكما فيمن سأل من الصحابة رضي الله عنهم عمّن وجد مع امرأته رجلاً ـ أي في حالة زنى (وهو عويمر) ـ فنزل حكمُ اللِّعان، وغيرها من الأسئلة التي يمكن تَقصِّيها في كتب أسباب النزول.

---

(١) الدر المنثور (ج٣/ ص٣١٩، ٣٢٠).

(٢) انظر الإكليل للسيوطي (ص٢٩٦).

١٠ ـ قوله ﷺ: أنزل عليّ عشر آيات، من أقامهنّ دخل الجنّة، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ...﴾ حتى ختم عشر آيات. فهذا النموذج شاهدٌ لحجية سياق المقطع[1]، كما ورد مثل ذلك في آيات في آخر آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ إلخ الآيات[2].

١١ ـ روى أبو هريرة أنّه ﷺ قال: يا أيّها الناس إنّ الله طيّب لا يقبل إلاّ طيّبًا، وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ...﴾ آية (٥١) المؤمنون، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ...﴾ إلخ الآية (١٧٢) البقرة[3].

١٢ ـ دليل على سياق الآية، وذلك بخصوص آية ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ ...﴾ وذلك عندما بدأ بالسعي بينهما من الصفا قائلاً: ابدأُ بما بدأ الله به ـ أو كما قال ﷺ ـ؛ ومحل الشاهد فيه مراعاة ترتيب الألفاظ، وهذا جزء من معنى السياق: التسلسل.

١٣ ـ عن جابر عن أم مبشّر رضي الله عنها، أنّها سمعت النبيّ ﷺ يقول عند حفصة: لا يدخل أحد النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها. قالت: بلى يا رسول الله! فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟! فقال ﷺ: قد قال عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ...﴾[4].

---

(١) تحفة الأحوذي (ج٩ / ص١٣). ومعنى أقامهنّ: حافظ عليهنّ وعمل بهنّ. ومعنى دخل الجنة هنا: الدخول الأوّلي ـ هامش التحفة (ج٩ / ص١٣).

(٢) الدر المنثور (ج٢ / ص١١٠).

(٣) صحيح مسلم وجامع الترمذي ومسند أحمد واللفظ له. تفسير ابن كثير (ج٣ / ص٢٤٧)، وتفسير النسفي (ج٢ ص١٢١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٩٦).

فقد فهمت حفصة أنّ الورود لجميع الناس وأنّه بمعنى الدخول، فأزال رسول الله ﷺ إشكالها بتمام الآية؛ وهو جزء من سياق الآية، فهو ﷺ قد أقرّها على فهمها ابتداء ثم وضح لها أن الدخول المنفي غير الورود المثبت، وأنّ الأوّل خاص بالمتّقين، والمراد به نفي العذاب فهم يمرّون منها إلى الجنة دون أن يمسّهم سوء وعذاب، وباقي الناس على خلاف ذلك.

***

ثانيًا: الرواية عن الصحابة:

١ ـ روي عن عمر رضي الله عنه وابن عبّاس: أنّ عمر رضي الله عنه قال للناس: ما تقولون في تفسير هذه الآية ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾؟ فسكتوا. قال: ولكن أعلمه، هو الرجل يزوّج نظيره من أهل الجنّة، والرجل يزوّج نظيره من أهل النار؛ أي يُقرَنُ به ويحشر معه، ثم قرأ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ...﴾ الآية (٢٢) من الصافات، فسّر بها آية (٧) من سورة التكوير، وهذا تفسير بالسياق القرآني العام، وروي مثل ذلك عن ابن عبّاس رضي الله عنه إذ قال: حين يكون الناس أزواجًا ثلاثة؛ مشيرًا بذلك إلى ما في الواقعة ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾[1].

٢ ـ قال عثمان رضي الله عنه وأصحابه رضي الله عنهم حين جمعوا القرآن: إنّ رسول الله ﷺ توفّي ولم يبيّن لنا موضع براءة، وإنّ قصّتها لتشبه قصة الأنفال، فنرى أن نكتبها معها ولا نكتب بينهما سطر: بسم الله الرحمن الرحيم[2].

---

(١) تفسير ابن كثير (ج٤ / ص٤٧٧).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (ج١ / ص٤٥٤).

وموضع الشاهد هنا هو إدراك التشابه الكبير بين هاتين السورتين[1]، وقد سبق بيان أنّ التشابه بين الآيات والمقاطع والسور من أدلة حجية التفسير السياقي.

٣ ـ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه ﷺ نُهِيَ عن أصناف من النساء إلاّ ما كان من المؤمنات المهاجرات، قال: ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ ... ﴾ إشارة إلى آية (٥٢) الأحزاب، ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ ... ﴾ من آية (٥٠) الأحزاب، وحَرَّمَ كلَّ ذاتِ دينٍ غير الإسلام، ثم قال: قرأ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [المائدة: ٥]؛ يعني: ومن يجحد ما أمر الله به من توحيدِ لله ونبوّة محمد ﷺ، وما جاء به من عند الله. ثم قال صاحب "التحفة": وهذه الآية من سورة المائدة الآية (٥)، والظاهر أنّ ابن عبّاس قرأها لبيان وجه تحريم الله على رسوله كل ذات دين غير الإسلام[2].

٤ ـ روي أنّ سيّدنا علي رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيف للمشركين؛ وهو قوله: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ ... ﴾ آية (٥) التوبة، وسيف لأهل الكتاب؛ وهو ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ... ﴾ آية (٢٩) التوبة، وسيف للمنافقين آية (٧٣) التوبة. أقول: وآية التحريم (٩)، وسيف للبغاة: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي ... ﴾ (٩) الحجرات[3].

فهذه النظرة الشاملة حول أمر واحد مشترك موزع بين آيات القرآن كله، من أقوى الشواهد والأدلّة على مشروعية الدلالة السياقية.

---

(١) وقد بيّنت ذلك في موضعه من هذه السلسلة المباركة، من مبحث التكامل السياقي والتي ستُنقَل إلى كتاب «أعمالي السياقية».

(٢) التحفة (ج٩ / ص٥٦).

(٣) تفسير ابن كثير (ج٢ / ص٣٧٧).

٥ ـ سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن معنى الاستمتاع في سورة النساء آية (٢٤)، فقالت: واللهِ ما نجدُ في كلام الله إلاّ النكاح والاستسرار (اتّخاذ السراري). وهي بهذا قد أغلقت جميع الأبواب لقضاء الشهوة بالحلال إلا عن هذين الطريقين، ولا يتسنّى لها ذلك، وبخاصّة وقد أقسمت بالله، إلاّ وهي مستحضرة جميع ما ورد في نكاح المحرمات[1].

٦ ـ ابن مسعود رضي الله عنه استدلّ بالقرآن على لعن الواشمات والمستوشمات والنامصات... فقالت امرأة: تَتبَّعتُ كُلَّ القرآن فلم أجد ذلك، فأحالها على قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ...﴾ إلخ.

نلاحظ قولها (تتبعت كل القرآن)، فَتتبّعها هذا تقصد به أن تجد آية تتضمّنُ هذا اللعن. وهذا منها دليل على حجية السياق لا سيما وأنه حصل على مسمع من الصحابي ابن مسعود وأقرّها على ذلك.

٧ ـ أبو بكر رضي الله عنه قال للأنصار في سقيفة بني ساعدة: إنّ الله جعلكم المفلحين، وسمّانا الصادقين، فقال في سورة الحشر آية (٨): ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، ثم قال في آية (٩): ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ ...﴾ وهي في الأنصار: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وقد أمركم الله سبحانه أن تكونوا معنا حيث كنّا، فقال في آية (١١٩) من التوبة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

---

(١) وفي الإكليل للسيوطي (ص١٨٦): أخرج ابن أبي حاتم عن القاسم بن محمد أنّه سئل عن متعة النساء، فقرأ آية المؤمنون ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، وأخرج عن أبي مليكة قال: سئلت عائشة عن متعة النساء، فقالت: بيني وبينهم القرآن ثم قرأت الآية (فمن ابتغى غير ما زوّجه الله أو ملكه فقد عدا). واستدلّ بذلك مالك والشافعي أيضًا على تحريم الاستمناء باليد.

ثمّ عقّب أبو بكر بن العربي قائلاً: لاحظ كيف تواصل السياق القرآني على معنى واحد إلى منتهاه[1].

أقول: أبو بكر رضي الله عنه عمل هنا بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ آية (٥٩) النساء؛ أي إلى كتابه[2].

وأقول أيضًا: ما أشدّ ذكاءك يا أبا بكر وما أصدق لهجتك وأكمل حفظك واستجماعك لمعاني القرآن، واستحضارك للمواضع المترابطة فيه معنويًا، حتى كأن القرآن كلّه في ذهنك مقطع واحد، بل آية واحدة، وإنّ كثيرًا منا ليغفل عن رؤية الترابط بين أجزاء الآية الواحدة.

وأقول ثالثًا: لو لم يكن غير هذا المثال والاستدلال، لرأيته ورآه معي كل منصف كافيًا في دلالته على مشروعية الاحتجاج بدلالة السياق القرآني بل إن صنيع أبي بكر في هذا الموقف الخطير، والحكم العظيم المتصل بأعظم ما يهم المسلمين في هذا الوقت الحَرِج، مع تسليم الأنصار برأيه رغم شدة حرصهم على أن يكون الخليفة منهم، هو بمثابة الإجماع على مشروعية الاحتجاج بالسياق القرآني ودلالته.

٨ ـ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما بخصوص آية الشورى (١٤): ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾: الذين أُريدوا بهذه الصفة هم اليهود والنصارى، لقوله تعالى في آل عمران: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ

---

(١) هذا القول من أبي بكر بن العربي واضح في تعريف السياق، وشموله للسياق القرآني العام، كما بيّنت في كتابي دلالة السياق (ص٨٦، ٨٨)، وليس كما فعل صاحب نظرية السياق القرآني، حيث أهمل هذا القسم الأهم عند ذكر أقسام وأنواع السياق، مع أن تعريفه شامل لهذا القسم كما يفهم من قول أبي بكر السابق.

(٢) ابن العربي (ج١ / ص٤٥٢).

﴿ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ...﴾ الآية (١٩). وقوله تعالى في سورة البيّنة: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾[1].

ألا ترى كيف ربط بين الآيات المتشابهة في لفظها ومعناها وجعل هذا التشابه طريقًا ومسلكًا من مسالك تفسير المواضع المتشابهة في القرآن الكريم؟

وأنا بدوري لم أخرج عن هذه المسالك حينما أوردت الإحالات القرآنية، والتكامل السياقي، والتشابه السياقي، كأدلّة على مشروعية الاستدلال السياقي وحجّيته.

٩ ـ ورد عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه استدلّ بآية المؤمنون (١٤)؛ على الأطوار التي يمر بها الجنين في الرحم، والمشار إليها في سورة نوح، وذكر أنّها المبيّنة لهذه الأطوار[2].

١٠ ـ ابن عبّاس رضي الله عنهما يزيل مخاوفَ أحد الخلفاء من سياق آية بالسياق القرآني وذلك في آية (١٨٨) آل عمران: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ ...﴾ إلخ الآية، فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما أنّ مروان بن الحكم قال لبوّابه: اذهب يا رافع إلى ابن عبّاس، فقل: لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى، وأحبّ أن يُحمد بما لم يفعل مُعَذَّبًا لَنعذَّبنَّ أجمعون! فقال ابن عبّاس: ما لكم ولهذه الآية؟ إنّما أنزلت في أهل الكتاب، ثم تلا الآية التي قبلها: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ...﴾، ثم قال: سألهم النبيّ ﷺ عن شيء فكتموه إيّاه، وأخبروه بغيره، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أوتوا من كتمان ما سألهم

---

(١) الشربيني (ج٣/ ص٥٣٢).

(٢) الأضواء (ج٨/ ص٥٢٦)، سورة نوح.

عنه؛ فالخليفة فهم الآية على عمومها، ولكن ابن عبّاس خصّ المعنى بسبب النزول[1].

أقول: مما يقوّي فهم ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ الآيات من (١٨١) حتى هذه الآية في اليهود وتَعديدِ مساوئهم ـ باستثناء آية (١٨٥) ـ ولكن الذي أميل إليه رغم ذلك: الأخذ بعموم سياق الآية مع القول بدخول سبب النزول دخولاً أوّليًا طبقًا للقاعدة المعروفة، لا سيما وأن هناك أقوالاً أخرى في السبب[2].

١١ ـ ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: من كان له مال يبلغه حج بيت الله أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت، فقال رجل: يا ابن عبّاس اتّقِ الله، فإنّما يسألُ الرجعة الكفّار، فقال: سأتلو عليكم بذلك قرآنًا ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ أي: إنّه استدلّ بالتي قبلها من حيث أنّ الخطاب فيها للمؤمنين والخطاب فيها متّصل ببعضه[3]. وهذا يصلح أن يكون مثالاً على حجيّة سياق المقطع. وانظر الإكليل (ص٢٦٤).

١٢ ـ عائشة رضي الله عنها سألها عروة بن الزبير عن: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ

---

(١) زبدة التفسير (ص٩٤).

(٢) أبو السعود ذكر هذه الأقوال، ثم رجّح أنّها في المنافقين، قائلاً: وهو الأنسب بظاهر قوله تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾؛ وذلك لشهرة أنّهم كانوا يفرحون بما فعلوا من إظهار الإيمان وقلوبهم مطمئنة بالكفر، ويستحمدون إلى المسلمين بالإيمان وهم بعيدون عنه، ولكن أبا السعود عاد فقال: ولعلّ الأولى إجراء الموصول على عمومه شاملاً لكل من يأتي بشيء من الحسنات فيفرح فرحَ إعجابٍ، ويودّ أن يُمدحَ بما هو عارٍ عنه من الفضائل مع انتظامه للمذكورين ـ من اليهود والمنافقين ـ انتظامًا أوليًا. (تفسير أبي السعود: ج١ / ص٣٠٢).

وأقول: وهذا هو الذي أرجحه بعد التعقيب على ترجيحه بأنّ المراد المنافقون للعلّة التي ذكرها وذلك بقولي: لا فرق بين المنافقين وأهل الكتاب في صفاتهم ومواقفهم من القرآن والرسول ﷺ بشكل عام.

(٣) صفوة التفاسير (ج٨ / ص٦١).

فَوَٰحِدَةً ﴾؟ فقالت: قول الله سبحانه في الآية (١٢٧) ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ ... ﴾ وفيه ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾؛ هي رغبة أحدهم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال، فنُهوا عن أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلاّ بالقسط، من أجل رغبتهم عنهنّ إن كنّ قليلات المال والجمال[1]. ونذكرك أنّ العلماء قد اختلفوا في تفسير آية النساء التي سأل عنها عروة خالته، ولو رجعوا إلى سياق السورة لوجدوا الحكم كما فعلت السيدة عائشة. هذا وقد استشكل المراد ـ أي عروة ـ من قوله: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ...﴾ فصححتْ له المراد[2].

١٣ ـ كاد السياق أن يخدع عليًّا رضي الله عنه!! فقد روي أنّه قُرئ بين يديه: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾، فقال: وما شأن الطلح؟! إنّما هو ﴿وطلع منضود﴾، ثم استدلّ بآية أخرى وهي ﴿لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ الآية ١٠ من ق، ونضيد تعني: منضود، فهو هنا قد احتجّ بسياق قرآني لتصحيح لفظة طلح في سورة الواقعة، فقيل له: أفلا نحوّلها؟ وفي رواية: أنحكُّها من المصحف ـ أي نَمْحُوها بالحك ـ؟ فقال: لا يُهاج القرآن ولا يُحوّل، وقال أبو بكر بن الأنباري: ومعنى هذا أنّه رجع إلى ما في المصحف، وعلم أنّه هو الصواب، وأبطل الذي كان من قوله، أي رجع إلى الرسم المُجْمَعِ عليه[3].

١٤ ـ ابن عبّاس رضي الله عنهما، قال عكرمة: جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عبّاس، فسأله رجل عن آية (٧٢) من سورة الإسراء: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ ... ﴾،

---

(١) الأحكام لابن العربي (ج١ / ص٣٠٩).

(٢) المناهل (ج١ / ص١٠٣).

(٣) انظر رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم للدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي (ص١٢).

فقال: اقرؤوا ما قبلها، فقرؤوا: ﴿رَبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ ...﴾ إلى قوله: ﴿تَفْضِيلًا﴾؛ يعني من أوّل آية (٦٦) حتى آية (٧٠)، فقال ابن عبّاس بعد ذلك: من كان أعمى في هذه النعم التي قد رأى وعاين فهو في الآخرة التي لم يُعاين ولم يَر أعمى وأضلّ سبيلاً، أورد ذلك الشربيني ثمّ قال: فالإشارة في قوله (هذه) إلى النعم المذكورة في الآيات المتقدمة[1].

فهذا كما ترى استدلالٌ بسياقِ المقطع، حيث رأى ابن عبّاس تَواصلَ النظم حول النعم، فجعل الإشارة تعود إلى هذه النعم كما قال الشربيني[2].

١٥ ـ عائشة رضي الله عنها قالت في سنن أبي داود (ج٣ / ص١٨٤): يا رسول الله إنّي لأعلم أشدّ آية في القرآن، قال: أيّة آية؟ قالت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ (١٢٣) النساء، قال: أما علمتِ يا عائشة أنّ المؤمنَ تُصيبه النكبة أو الشوكة فيكافأ بأسوأ عمله... الحديث، ومحل الشاهد منه: أنّها رضي الله عنها كانت وهي تقرأ القرآن تقارن بين معاني الآيات وتربط بينها، ولولا هذا ما رأت ذلك، وهذا هو ما نريدُ الاستدلالَ به؛ لأنّ هذا هو ما نقصد بالسياق القرآني العام.

١٦ ـ ابن عبّاس رضي الله عنهما استدلّ بسياق آية على معنى لفظٍ فيها، والآية هي آية الكرسي: حيث فسّر الكرسي بالعلم قائلاً: ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾[3]. ومحلّ الشاهد احتجاجه بلفظة في الآية لإيضاح معنى لفظة أخرى وردت فيها وإن كان ذلك التفسير مخالفًا للمشهور عن السلف، بل وعنه أيضًا كما ورد في

---

(١) تفسير الشربيني (ج٢ / ص٣٢٤).

(٢) وفي النفس شيء من هذا الاستدلال، ولكنّي هنا لا أتعرّض للبعد عن السياق أو الموافقة له، وإنّما أذكر أدلّة من استعمال الدلالة السياقية في التفسير من قبل الصحابة والتابعين؛ وهذا من أقوى الأدلة.

(٣) آية الكرسي. رسالة السيوطي (ص٧١).

موضع آخر، وكذلك مخالف لحديث ورد في تفسير الكرسي بغير ذلك[1].

وإنّما يهمّنا هنا هو مجرّد الاستدلال بسياق الآية حتى ولو كانت فيه هذه المخالفة.

١٧ ـ القصة المشهورة عن عليّ رضي الله عنه في استنباط أقلّ مدة الحمل من مقارنةِ سياقٍ بسياقٍ آخر[2]، مما يحتاج إلى عقل واعٍ وحافظ ومحيط بأسرار الآيات كلّها، كما شُهد بذلك لعليّ رضي الله عنه، ولا سيّما من ابن عبّاس رضي الله عنهما؛ وكما وصف هو نفسه.

١٨ ـ أورد ابن كثير أنّ امرأة في زمن عمر رضي الله عنه استدلّت بالآية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ آية (٦) من المؤمنون؛ على جواز أن تُمكِّنَ المرأةُ عبدَها من نفسها، وقالت: تأولتُ كتاب الله، فلما أُحضرت إلى عمر قال له بعض أصحابه: تأولت آية من كتاب الله على غير وجهها، فضرب العبد وجزّ ناصيته، وحرّم على المرأة الزواج من كلّ مسلم معاملةً بنقيضِ قصدها. (ج٣/ ص٢٣٩).

١٩ ـ ما روي من أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد وافق القرآن في مواضع كثيرة: ففي تفسير ابن كثير: قال ابن أبي حاتم... ثم ساق السند إلى أنس رضي الله عنه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وافقتُ ربّي ووافقني[3] في أربع: هذه الآية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ...﴾ من آية (١٢ ـ ١٤) من سورة المؤمنون،

---

(١) بل إن ابن عباس رضي الله عنهما قد ورد عنه غير ذلك: «الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر أحد قدره»، تفسير ابن كثير (ج١/ ص٣٠٩). كما روي عن غيره غير ذلك، راجع هذه الروايات في المصدر السابق (ص٣٠٩ ـ ٣١٠).

(٢) ذكرتها مفصلة في موضع آخر من هذه السلسلة المباركة: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾، مع ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، بطرح عامين أي ٢٤ شهرًا من ٣٠ شهرًا ينتج أنّ مدّة الحمل ٦ أشهر.

(٣) ووافقني: يعني أنّ القرآن نزل وفق مشيئته أو ما اقترح نزوله.

قلت أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت؛ أي: نطق بهذه الجملة قبل نزولها، وهي من موافقات الله سبحانه لعبده الملهم رضي الله عنه[1].

اكتفى ابن كثير بذكر هذه من الأربع، ولكن السيوطي في الدر أوردها كلّها[2]، وأخرج الطيالسي وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أنس، قال: قال عمر: وافقت... قلت: يا رسول الله! لو صليتَ خلف المقام، فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

وقلت: يا رسول الله! لو اتّخذتَ على نسائك حجابًا؛ فإنّه يدخلُ عليك البَرُّ والفاجر، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾.

وقلت لأزواج النبي ﷺ: لَتنتهُنَّ أو لَيُبدِّلنَّهُ اللـهُ أزواجًا خيرًا منكنّ، فأُنزلت: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ ...﴾ الآية.

ونزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، فقلتُ أنا: فتبارك الله... فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[3].

وهنا قد يثور سؤال مُريب: لو لم يقل عمر ذلك، أفما كانت هذه الآيات قد أُنزلت؟

الجواب: إنّها موجودة في اللوح المحفوظ في مكانها من القرآن قبل أن يُخلقَ عمر ويقول ذلك، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أن تنزل آيات وسور مرتبطة بأسئلة

---

(١) تفسير ابن كثير (ج٣/ ص٢٤١).

(٢) ولقد كنت أسمع أنّها أكثر من ذلك بكثير، ولكن اقتصار السيوطي على الأربع جعلني أشك فيما زاد عن ذلك؛ لأنّ السيوطي حريص على الاستقصاء في مثل هذه الأمور.

(٣) الدر المنثور (ج٥ / ص٧).

وقضايا، ومن هنا كان جبريل عليه السلام يقول للنبي ﷺ ضع هذه الآية في المكان الفلاني من السورة برقم كذا، كما بيّنت في مبحث «الإعجاز الترقيمي»، وكما وردت به الرواية.

والذي يعنينا هنا من نقل ذلك عن عمر رضي الله عنه أن ننظر لحجّية دلالة السياق من هذه الزاوية؛ فالقرآن عربي، والسياق عربي في نظمه وأسلوبه، والعربي ـ السليم الفطرة التي ازدادت استنارة بالإيمان وحضور البديهة[1] ـ ربّما دخل في السياق قبل اكتماله فيكمّله، وربّما التقى به قبل نزوله فنطق به أو بمعناه كما حدث حتى لبعض أهل الجاهلية في كلامهم (خطبًا وشعرًا): كما في شعر أمية بن أبي الصلت، وخُطب قس ابن ساعدة، وأكثم بن صيفي، ثم إنّ ما وصف به الوليد بن المغيرة مع كونه رأسًا في الكفر والعداء للقرآن حين طالبه قومه أن يقول فيه كلامًا ينفّر العرب الوافدين على مكّة من نواحي الجزيرة في المواسم، فوصفه وصفًا لا يقلّ دلالة على المعنى السياقي من موافقات عمر رضي الله عنه وغيره من الصحابة رضي الله عنهم.

وهنا نُذكّر بالآيات الكثيرة التي وصفت القرآن بكونه عربيًّا، فإنّها لا تعني الألفاظ فحسب ـ كما قال الطوفي في بعض ما وصف به القرآن ـ وإنّما تعني التراكيب والأساليب كذلك، ومن ذلك السياق، بل حَظُّ السياق من هذا الوصف أكبر من حظ غيره؛ لأنّه شامل للمعنى والنظم والمفردات والتراكيب، وكلّها من مكونات السياق، ومن حاضنات معناه.

٢٠ ـ روى الضياء في «المختارة»، وابن مردويه وغيرهما، عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه، قال: قلت للنبيّ ﷺ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ...﴾ إلخ الآية؛ أهي المطلّقة ثلاثًا، والمتوفّى عنها زوجُها؟ قال: هي المطلّقة ثلاثًا والمتوفّى عنها زوجها، ثم عقّب السايس

(١) إلى جانب ما أُوتيَ من منحة الإلهام الإلهي؛ كما أشير إلى ذلك في الحديث النبوي.

على ذلك بقوله: فجاءت السنّة مبيّنة أنّ قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ ... ﴾ عَامٌّ في المطلّقةِ والمُتوَفّى عنها زوجها، وأنّ عُمومَها مرادٌ وإنْ كان السياق يقتضي أنّها خاصّة بالمطلّقات ـ يشير إلى الآيات من أوّل سورة الطلاق إلى هذه الآية (٤) ـ فصارت الآية بعد بيان السنّة ناصّة على أنّ عدّة الحوامل المتوفّى عنها زوجها تنتهي بوضع الحمل فقط[1].

وأقول على سبيل الاستطراد: لا أدري لماذا وقع الاختلاف بينهم حول هذه العدّة حتى روي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ عدّتها تكون بأبعد الأجلين.

٢١ ـ روي أنّ سيّدنا عليًّا رضي الله عنه أقبل على الناس، فقال: أي آية في كتاب الله أرجى عندكم؟ فقال بعضهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ... ﴾ إلخ الآية (١١٦) من سورة النساء، فقال: حسنة، وليست إيّاها، وقال بعضهم: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ... ﴾ إلخ الآية (١١٠) من النساء، قال: حسنة وليست إيّاها، وقال بعضهم: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ... ﴾ إلخ الآية (٥٣) الزمر، قال: حسنة وليست إيّاها، قال: ثم أحجم الناس، فقال: ما لكم يا معشر المسلمين؟! فقالوا: لا والله ما عندنا شيء، قال: سمعتُ حبيبي رسول الله ﷺ يقول: أرجى آية في كتاب الله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ... ﴾ الآية (١١٤) هود[2]. فأنت ترى أنّ هذا المثال صالح للاستدلال من جهات عدّة:

---

(١) أحكام السايس (ج٤ / ص١٦٩). وهذا المثال مشترك بين ما هو منقول عن النبيّ ﷺ وبين ما هو عن الصحابة من جهة أنّ السؤال الذي أورده الصحابي دالٌّ على النظرة السياقية، وقد أقرّه النبيّ ﷺ على ذلك، فصارت دلالته مشتركة.

(٢) مجمع البيان (ج١٢ / ص٢٣٢).

أ ـ مجرّد طرح السؤال من الإمام عليّ رضي الله عنه يدلّ على ذلك، أي: «حجية السياق».

ب ـ اختلاف آرائهم والمشاركات العديدة منهم تدلّ على أنّهم كانوا يعقدون مقارنة بين مضامين الآيات في نفوسهم في أثناء التلاوة، ولا يقرأون القرآن هذرًا كما يفعل كثيرون منّا الآن.

ج ـ دقّة المقارنة بين معاني الآيات المتشابهة؛ من حيث استحسانه لما ذكروا مع ترجيحه لدلالة آية أخرى، ولولا الهيبة من مقام سيّدنا عليّ رضي الله عنه؛ لقلت قياسًا على نظرته: إنّ آية الفرقان (٧٠) أرجى من آية هود كما هو ظاهر؛ فآية هود تقتصر على إذهاب السيّئات بالحسنات، لكن آية الفرقان تزيد ببيان تبديل السيئات حسنات، وكرم الله أوسع من تقديراتنا كلّها والحمد لله ربّ العالمين.

٢٢ ـ ومما هو تابع للفقرة السابقة أنّ السلف رضي الله عنهم ورد عنهم أمثلة كثيرة من مثل هذا الذي ورد عن عليّ رضي الله عنه في البحث والسؤال عن الأهم بالنسبة لموضوع معيّن في القرآن، مثل: أرجى آية، أخوف آية، أعدل آية، أعظم آية... وهكذا؛ مما يشير بوضوح وقوة إلى النظرة الشمولية للقرآن الكريم عند كثير منهم، وتفاوتهم في ذلك بحسب تفاوت أفهامهم مع التفاوت في قوة الحفظ، وفي معرفة مواقع النزول، وشواهد الوحي، وكثرة ممارسة التلاوة[1].

وهنا نَذكُر ما روي عن التابعي الكبير «عثمان النهدي» حين سُئل عن أرجى آية في كتاب الله لهذه الأمة، فذكر آية التوبة (١٠٢): ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ... ﴾، ولكن عبد الله بن عمرو بن العاص حين سأله ابن عبّاس رضي الله عنه عن أرجى آية

(١) انظر الأضواء (ج٥ / ص١٦٣، ١٦٤).

عنده، قال: هي آية الزمر (٥٣): ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ﴾، فقال ابن عبّاس: لكن أنا أقول: قول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي ...﴾ إلى قوله: ﴿بَلَىٰ﴾. فرضي من إبراهيم عليه السلام قوله: بلى؛ فهذا لما يعرض في الصدور ويوسوس به الشيطان[1].

٢٣ ـ ابن عبّاس رضي الله عنهما يقوده التأويل والنظرة الشاملة في سورة النساء إلى اكتشاف واستشفاف موضع مشترك في ثنايا آياتها؛ وذلك في قوله: ثماني آيات في سورة النساء هُنَّ خيرٌ لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت:

١ ـ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ ...﴾.

٢ ـ ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ ...﴾.

٣ ـ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡ ...﴾.

٤ ـ ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ...﴾.

٥ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ...﴾.

٦ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا ...﴾.

٧ ـ ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ...﴾.

٨ ـ ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ ...﴾[2].

أقول: بعد أن فهمت وجه الشبه بين هذه الآيات وما قصد إليه ابن عبّاس رضي الله عنهما، فقد رأيت أن أضيف إليها:

---

(١) الحدائق الحسان (ص٢٨).

(٢) تفسير أبي السعود (ج١ / ص٣٥٣).

أ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ...﴾ إلخ الآية (٦٤)[1].

ب ـ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ...﴾ إلخ آية (٦٩) النساء.

ج ـ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ الآية (١٢٤) النساء.

والذي شجّعني على هذا التطفّل على فكر ابن عبّاس رضي الله عنهما وفهمه أنّي وجدتُ أنّ الرابط بين الثمانية هو سَعَةُ عفوِ الله ورحمته ومغفرته، رغم ظلم الإنسان لنفسه وكثرة أخطائه، فوجدت أنّ هذه الثلاثة تأخذ من ذلك الرابط نصيبًا كبيرًا فألحقتها بها؛ مع رجاء أن يحشرني الله تعالى في زمرة ابن عبّاس رضي الله عنهما وإخوانه من الصحابة الكرام ومع من ذكرتهم آية (٦٩).

٢٤ ـ ورد في صحيح البخاري بسنده إلى سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عبّاس: إنّي لأجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، ثم ذكرها:

أ ـ ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ...﴾ مع قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ...﴾ ـ الأولى في سورة المؤمنون والثانية في الصافات ـ.

ب ـ ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ...﴾ مع ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ...﴾.

ج ـ ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ...﴾ ؛ فهنا ذكر خلق السماء قبل الأرض. وفي

---

(١) أُذكِّر بالارتباط الرقمي بين هذه الآية وما خُتمت به سورة النور التي تنورت أعطافها بذكر المصطفى من أوّلها إلى آخرها، والتي تشير آخر آيتين فيها إلى عمر النبي ﷺ.

فصّلت ذكر العكس.

د ـ التعبيرات المختلفة في أواخر الآيات التي تشتمل على أسماء الله الحسنى: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾... إلخ.

فقال ابن عبّاس رضي الله عنهما:

أ ـ ﴿فَلَآ أَنسَابَ...﴾: في النفخة الأولى ـ حيث يُصعق من في السماوات والأرض ـ فلا أنسابَ عند ذلك ولا يتساءلون، وفي النفخة الثانية يقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

ب ـ ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾: ذلك أنّ الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فيقول المشركون: تعالوا نقول: لم نَكُنْ مشركين. فيختمُ الله على أفواههم وتنطق جوارحهم، فعند ذلك يُعرف أنّ الله لا يُكتَمُ حديثًا.

ج ـ خلق الأرض في يومين ثم السماء، ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ، ثم دحا الأرض في يومين؛ أي هيّأها للعيش.

د ـ سمّى نفسه بذلك: أي لم يزل كذلك فإنّ الله لم يُرد شيئًا إلاّ أصاب الذي أراد، فلا يختلفنّ عليك القرآن، فإنّ كلاًّ من عند الله[1].

والذي يهمّني في هذا المقام ليس التحقق والتدقيق في تفاصيل هذا الحوار، والتثبّت من صحّة جميع ما ورد فيه، وإنّما المهم في الدرجة الأولى أن نعلم بأنّ السلف الصالح رضي الله عنهم لم يكن تعاملهم مع كل آية على حدة، بل كانوا ينظرون في مواضع التشابه والاختلاف بين الآيات، وحين يرون أيّ شبهة في الأمر يرجعون إلى أهل الذكر منهم.

---

(١) عن ابن كثير (ج٤ / ص٩٣).

٢٥ ـ ابن مسعود رضي الله عنه قوله: إنّ أعظم آية في كتاب الله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ... ﴾، وإنّ أجمع آية للخير والشر آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ... ﴾ من سورة النحل، وإنّ أكثر آية فرجًا، وأشد آية في كتاب الله رجاءً هي في سورة الغرف: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ ... ﴾، وإنّ أكثر آية في كتاب الله تفويضًا: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ... ﴾ من سورة الطلاق، فقال له مسروق: صدقتَ[1].

٢٦ ـ روي عن ابن عمر رضي الله عنهما رواية ثمينة وبالوقوف عندها طويلاً قمينة، أوردها ابن كثير عن البخاري، وهي تشبه في قوة دلالتها على المقصود الرواية التي وردت عن أبي بكر رضي الله عنه في إقامته الحجة على الأنصار في سقيفة بني ساعدة في أمر خطير وهو: أولوية استحقاقه الخلافة بعد رسول الله ﷺ.

وإليك هذه الرواية عن ابن عمر فإنّها ـ والله تستحقّ أن تُكتبَ بماء الذهب وأن تُعمّم على الناس وبخاصّة المقاتلين تحت رايات (عمية)، وبدون تحديدٍ للأهداف، ثم هي ذات دلالة قاطعة على حجيّة السياق القرآني العام، وعدم الوقوف عند نص واحد والأخذ بظاهره دون أيّة محاولة لربطه مع نصوص أخرى لها صلة به، تقييدًا أو بيانَ إبهام، أو تخصيصًا أو نسخًا أو غير ذلك من وجوه البيان، ولو فعل ذلك كل ناظر في النصوص القرآنية من أهل العلم والاجتهاد لضاقت ساحة الاختلاف واقتصرت على المتشابهات:

لقد حصل اختلاف بين ابن عمر وآخرين في فهم الفتنة الواردة في آية الأنفال (٣٩): ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾، وذلك أنّ رجلاً جاء إلى ابن عمر

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (ج٤ / ص٥٩). وشعب الإيمان للبيهقي، وتفسير الشربيني (السراج المنير) (ج٢ / ص٢٥٦، ٢٥٧).

يستحثّه على المشاركة في القتال في فتنة حدثت بين المسلمين وفرّقتهم إلى فريقين؛ فريق يقاتل بقيادة إمام، وفريق يقاتل بقيادة إمام آخر، وكل فريق يستدلّ بنصوص شرعيّة!!

فالرجل يقول: يا أبا عبد الرحمن ألا تصنع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى...﴾، فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي! أُعيَّرُ بهذه الآية ولا أقاتلُ أحبُّ إليّ من أن أُعيَّرَ بالآية التي تقول: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ...﴾، ثم استدلّ الرجل بآية الأنفال. فقال ابن عمر: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يُفتَنُ في دينه؛ إما أن يقتلوه وإمّا أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام، فلم تكن فتنة. وفي رواية: أنّه قال: قاتلتُ أنا وأصحابي حتى كان الدين كلّه لله، وذهب الشرك ولم تكن فتنة، ولكنّك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله[1].

وهكذا نجد أنّ الغفلة عن السياق القرآني كانت من أسباب انقسام المسلمين في الفتن التي وقعت بينهم إلى فريقين كلّ منهما يُحارب مع فئة متأولين آيات القرآن بعيدًا عن النظرة السياقية المتكاملة التي رآها ابن عمر رضي الله عنهما وغيره ممن اعتزلوا هذه الفتن[2].

***

(١) تفسير ابن كثير (ج٢ / ص٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) فتنة خروج الحسين رضي الله عنه على بني أمية هو وابن الزبير رضي الله عنه، وفتنة الجمل، وصفّين... إلخ.

ثالثًا: الرواية عمن بعد عصر الصحابة:

١ ـ الحسن البصري قال في آية البقرة: تحريم الخمر من وجهين؛ أحدهما أنّه بيّن أنّ فيهما الإثم، وقد حرّم في آية أخرى الإثم، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ ﴾ الآية (٣٣) الأعراف[1].

٢ ـ قال الحسن: إنّهما (آدم وحواء) قالا: ربّنا ظلمنا أنفسنا... إلخ، وقال مجاهد: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾، قال: هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾[2].

٣ ـ احتجاج سياقي غير صحيح في قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾ في آخر سورة الحجر؛ حيث فسّرها عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بما في سورة النمل، الآية (٤٩): ﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ ... إلخ ﴾ الآية؛ أي أنّ المراد بالمقتسمين أصحاب صالح الذين قالوا ما أخبر الله عنهم في آية النمل، وما أبعد ذلك عن السياق؛ ذلك لأنّ الآية التي بعدها في الحجر مباشرة: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾، و﴿ٱلَّذِينَ ﴾ صفة للمقتسمين بلا خلاف، فما أبعد هذا عن ذاك[3]؟!

٤ ـ مجاهد: نقل عنه ابن جرير وغيره في قوله تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾؛ أنّه قال: دعا داع بعذاب واقع، ثم قال هو قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ

---

(١) مجمع البيان (ج٢ / ص٢٠٦).

(٢) الطبري (ج١ / ص٦٦)؛ أي أنّ الحسن ومجاهد فسّرا الكلمات في آية البقرة: (فتلقّى آدم من ربّه كلمات...) آية (٣٧)، بما في آية (٢٣) الأعراف: (قالا ربّنا ظلمنا...).

(٣) السراج المنير (ج٢ / ص٢١٢)، وتفسير ابن كثير (ج٢ / ص٥٥٨)؛ ونجعل هذا المثال مثالاً على الغفلة كسبب من أسباب البعد عن السياق، والتي ربما تعتري أقدر المفسّرين ـ والله غالب على أمره ـ كما يظهر في أمثلة البعد عن السياق، وما أكثرها.

عِندِكَ ...﴾ آية (٣٢) الأنفال، وذلك على لسان النضر بن الحارث[١].

٥ ـ مجاهد في تفسير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾؛ قال في إحدى الروايات عنه: من إتيان النساء في أدبارهنّ، وقال ابن عطية تعقيبًا على ذلك: كأنّه نظر إلى قوله تعالى عن قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ الآية (٥٦) النمل[٢].

٦ ـ قال وهب بن منبّه: الفردوس اسم يشمل جميع الجنة؛ لأنّ الله تعالى مدح في أوّل سورة المؤمنون أقوامًا وصفهم ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ...﴾، ثم أعاد ذكرهم في سورة المعارج، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾؛ فعلمنا أنّ الفردوس جنات لا جنّة واحدة وهذا يتّفق مع حديث في البخاري جاء فيه: فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنّه وسط الجنة وأعلى الجنة[٣].

٧ ـ مسلم بن يسار (ت ١٠٨ هـ)[٤]، وهو من موالي طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، فهو قد عاش في عصر الصحابة وكبار التابعين، وقد ذكر السياق بمعناه حيث قال: إذا حُدّثتَ عن الله فاعلمْ ما قبلَهُ وما بعده[٥].

وهذا يلقي ضوءًا على تاريخ الاحتجاج السياقي كتأصيل نظري مبدئي ـ أو كقاعدة ـ ذلك أنّ استعماله كان قبل ذلك كتطبيق عملي؛ كما رأينا عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والصحابة والتابعين في الأمثلة السابقة.

---

(١) الأضواء (ج٨ / ص٤٥٤)، سورة المعارج، وهذا من مجاهد رضي الله عنه احتجاج بالسياق القرآني.

(٢) القرطبي (ج٣ / ص٩١).

(٣) التذكرة (ص٥٢٥).

(٤) هذا في الأعلام، لكن في المعارف لابن قتيبة (١٠٠ أو ١٠١هـ / ص٢٣٤).

(٥) حلية الأولياء للأصفهاني (ج٢ / ص٢٩٢)، وابن كثير (ج١ / ص٦).

٨ ـ في تاريخ الطبري: حدّثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي قال: حدّثنا... وساق السند إلى مجاهد، في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ قال: قالا ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي أنّه فسّر آية (٣٧) من البقرة بآية (٢٣) من الأعراف.

٩ ـ قال ابن كثير: إنّ الطبري قد تعقّب الذين قالوا إنّ الإسراء كان منامًا، ودلّل الطبري على أنّ هذا خلاف ظاهر السياق القرآني، وإليك قوله: فإنّ الله إنّما أخبر في كتابه أنّه أسرى بعبده ولم يخبرنا أنّه أسرى بروح عبده، وليس جائز لأحد أن يتعدّى ما قاله الله سبحانه.

وهذا مثال على التفسير بسياق الآية.

١٠ ـ قال الشافعي في "الرسالة" وهو يعدّد ويمثّل لأنواع البيان للقرآن (ج١ / ص٣٨): الصنف الذي يبيّن سياقه معناه، ثم ذكر أمثلة منها: قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ...﴾ الأعراف (١٦٣)، فقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ...﴾ بعد قوله ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾؛ دلّ على أنّه إنّما أراد أهل القرية لأنّ القرية لا تعدو ولا توصف بالفسق.

وهذا مثال أو دليل على مشروعية التفسير بسياق الآية[1]، وكذلك ما في الفقرة التالية.

١١ ـ قال الشافعي: وكلّ قاتلِ عَمْدٍ عُفيَ عنه، وأُخذت منه الدية، فعليه الكفارة لأنّ الله عزّ وجلّ إذ جعلها في الخطأ الذي يوضع فيه الإثم كان العمد أولى. والحجّة في ذلك كتاب الله عزّ وجلّ حيث قال في الظهار: ﴿مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾، وجعل

(١) وانظر أحكام القرآن له (ج١ / ص٤٢)، ففيه أمثلة كثيرة لعمله بالسياق واحتجاجه به.

فيه كفّارة. ومن قوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾، ثم جعل فيه الكفارة.

هذا منه رحمه الله تعالى استنباط حكم شرعي من السياق القرآني، وليس تفسيرًا، وإنّما هو للتأويل أقرب، ولنا عليه مأخذ ستجده في مبحث البعد عن السياق.

١٢ ـ الشافعي يعمل بالسياق، وقد تعرّض له كثيرًا في كتابه أحكام القرآن (ج١ / ص٤٢)، مع أنّه عاش ما بين (١٥٠ ـ ٢٠٤هـ)؛ يعني في القرن (٢هـ).

١٣ ـ الطبري في تفسيره: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾، قال: الأولى قول من قال: جمعت، قال الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾؛ أي مجموعة[1].

١٤ ـ الكيا الهراسي ربط الآية (٣٩) من الشورى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ بآيات أخر في القرآن تحث على العفو، وتفضّله على الانتصار مثل: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وغيرها كثير في كتاب الله، ثم بيّن وجه التوفيق بين الآيات التي تحثّ على العفو، والآيات التي تبيح الانتصار[2].

١٥ ـ في مجلس أحد الفقهاء حاول أحد رجال الدين النصارى أن يستدلّ بآية على كون عيسى عليه السلام ابن الله ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ أو جزءًا منه، وهي قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾؛ وكان في المجلس أحد العلماء الكبار، فسئل عن هذا الأمر، فاستمهل الخليفة ريثما يستعرض كتاب الله فوجد آية في سورة الجاثية صالحة للرد على النصراني وهي: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ الآية (١٣)، فقال: إن كانت منه في قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾من آية النساء (١٧١)، تدلّ

---

(١) عن ابن كثير (ج٤ / ص٤٧٦).

(٢) تفسيره (ج٢ / ص٣٦٦، ٣٦٧).

على الجزئية فكذلك كل ما في السماوات والأرض هو جزء منه، ولا قائل بذلك. فبطلت حجّة النصراني[1].

١٦ ـ قال ابن إسحاق: سمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إنّ الذي أمر اللهُ إبراهيمَ بذبحهِ هو إسماعيل، وإنّا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى: وذلك أنّ الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم، قال: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ ﴾؛ وذلك في سورة الصافات من الآية (١٠١ ـ ١١٢). انظر تفسير ابن كثير.

١٧ ـ قال أبو بكر بن العربي وهو يعلّق على آية ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ (٢٢٨) البقرة: هذه الآية عامة في كل مطلّقة، لكن القرآن خصّ منها الآيسة والصغيرة في سورة الطلاق، فَعِدَّتُها بالأشهر، وخَصَّ منها التي لم يُدخَلْ بها في الأحزاب آية (٤٩)، والأَمَة عدّتها حيضتان بالسنة والإجماع، ثم هي عامّة في الطلاق البائن والرجعي[2].

١٨ ـ قال ابن خلدون حول آيات سورة المائدة من آية (٢١ ـ ٢٦): ويظهر من مساق الآية أن حكمة ذلك: أي تحريمها على بني إسرائيل ٤٠ سنة؛ أن يفنى الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر وعلقوا بذلك حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز، ثم قال: ويظهر من ذلك أنّ الأربعين سنة أقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر[3].

---

(١) واجهتُ موقفًا كهذا من أحد رجالات النصارى في أواخر الثمانينات وناقشته فيما استدلّ به من القرآن الكريم في حضرة ولده المثقّف وزوجة ولده المثقّفة، وأبطلت حجة هذا الشيخ النصراني. انظر تفاصيل هذا الموقف في كتابي "تجارب ومواقف في الدعوة إلى الله بالحكمة" ـ (طبعة دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، ١٩٩٩ / ص٦٥ ـ ٦٩).

(٢) الأحكام لابن العربي (ج١ / ص١٨٥، ١٨٦).

(٣) المقدمة (ص١٤١ ـ ١٤٢).

١٩ ـ قال السايس: استشكلت هذه الآية ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ ... ﴾ ؛ بأنّها حصرت المحرّمات في هذه الأربعة، ولا شكّ أنّها أكثر من ذلك، وأجيب عن ذلك بأجوبة منها:

أ ـ لا أجد محرّمًا مما كان أهلُ الجاهلية يُحرّمونه كالبحائر ويكون الاستثناء منقطعًا، وهو ليس كالمتّصل في إفادة الحصر[1].

ب ـ لا أجد إلى الآن محرمًا إلاّ الأربعة، ولكن الرازي لم يقبل هذين الجوابين؛ لأنّه ورد في القرآن غير هذه الآية ثلاث آيات تفيد الحصر، قال: وإذا كانت الآيات الأخرى تدلّ على الحصر في الأربعة وجب القول بدلالة آية الأنعام على الحصر لتطابق الآيات التي ذكرنا[2].

٢٠ ـ ابن تيمية، قال بخصوص تفسير آية (٩) النحل ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾: فَصْلٌ في ثلاث آيات متناسبة متشابهة اللفظ والمعنى، يَخْفَى معناها على أكثر الناس؛ وهي:

أ ـ ﴿ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ آية (٤١) الحجر.

ب ـ ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

ج ـ ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ آية ١٢ من سورة الليل[3].

٢١ ـ وقال ابن تيمية: من تدبّر القرآن وتدبّر ما قبل الآية وما بعدها، وعرف

---

(١) هذا هو الرأي الذي رجّحته في تأويل الآية، وفي التوفيق بينها وبين ما يعارضها في الظاهر من النصوص.

(٢) أحكام السايس (ج٢ / ص٢٣٢).

(٣) دقائق التفسير (ج٣ / ص٤٩٧)، وهذا الربط بين آية النحل والآيتين الأُخريين لتفسير آية النحل دالٌّ على حجية السياق.

مقصود القرآن تبيّن له المراد... إلخ[1]، وإذا تدبرتَ هذا القول وجدتَ أنّه أصل لكلّ من حاول في عصرنا وضع نظرية أو قواعد في علم السياق وتعريفه؛ حيث إنّه قد اشتمل على أهم عناصر التعريف للسياق.

٢٢ ـ استدلّ الرازي بالقرآن على تفضيل أبي بكر رضي الله عنه بأن جمع بين آيات من سورة الليل نزلت في أبي بكر وُصف فيها بالأتقى، وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ في الحجرات، مما يمكن أن يُستنتج منه أنّه أفضل هذه الأمّة بعد رسول الله ﷺ[2].

٢٣ ـ القرطبي في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ من الآية (٣٦) البقرة، قال: اختُلفَ في تأويل ومعنى (زلّته)؛ بين قائلٍ بأنّه عليه السلام أخطأ في التأويل إمّا بحمل النهي على التنزيه أو بحمل اللام[3] على شجرة معيّنة أشير إليها، ثم رجّح القرطبي: أنّه فعل ذلك ناسيًا بنص القرآن، كما في آية طه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ ...﴾ الآية (١١٥)[4].

٢٤ ـ روى حفص عن عاصم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ الآية (١٥٢) من سورة النساء، بالياء، وحجّته في ذلك: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[5]، وقرأ حمزة: ﴿سوف نؤتيهم﴾؛ بالنون، وحجته قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ ...﴾

---

(١) رسالة الحدائق الحسان (ص٦٩).

(٢) رسالة الحدائق الحسان (ص٥٧).

(٣) اللام من كل الشجرة التي نُهي عن الأكل منها.

(٤) القرطبي (ج١ / ص٣٠٥، ٣٠٦). وإيجاز البيان (ص٩٢، ٩٣).

(٥) الآية (١٤٦) النساء.

(٢٧) العنكبوت، و﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ...﴾ (٢٧) الحديد[1].

٢٥ ـ ابن كثير حول آية ﴿سأل سائل﴾؛ قال:

أ ـ يقصد به سؤال الكفّار، أو أحدهم وهو النضر بن الحارث عن عذاب الله، وهو واقع بهم لا محالة في الآخرة.

ب ـ قال ابن زيد وغيره: هو وادٍ في جهنّم يسيل يوم القيامة بالعذاب، قال ابن كثير: وهذا القول ضعيف، بعيد عن المراد، والصحيح الأوّل لدلالة السياق عليه، وهو قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ...﴾ الآية (٣٢) الأنفال[2].

٢٦ ـ الطبري قال بخصوص آية ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ الآية (١٥٨) من سورة الصافات:

أ ـ المُشْهَدونَ الحسابَ، قاله مجاهد، كما في معجم غريب القرآن (ص٣٨).

ب ـ سيُحضرون للعذاب في النار، ورجّحه الطبري بحجة أن سائر الآيات التي

---

(١) هذا الاحتجاج بالسياق نموذج على ترجيح قراءة على أخرى، والظاهر أنّ الحق مع حفص عن عاصم، لتطابق المعنى السياقي في آيتي النساء مع المعنى، بخلاف ما احتجّ به حمزة؛ ففيه اختلاف اللفظ. وإن كانت الآيات كلّها عن إتيان الأجر.

(٢) لاحظ كيف سمّى تفسير آية بأخرى في موضع آخر تفسيرًا سياقيًا. نقلاً عن (ص٢٧) من كتاب رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين: روى ابن كثير عن ابن عبّاس في تفسير مالك...: لا يملك أحد معه في ذلك اليوم حكمًا كملكهم في الدنيا، وكذا قال غيره من الصحابة والتابعين وسائر السلف. ثم قال: وهو ظاهر، ثم نقل عن ابن جرير عن بعضهم تفسيرًا آخر: وهو أنّه القادر على إقامته، وبعد قوله: والظاهر أنّه لا منافاة بين القولين. (ج٤ / ص٤١٨). وقال في موضع آخر حول (مالك يوم الدين): ولكن السياق أدل على المعنى الأوّل كما قال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾. (ج١ / ص٢٥١). في قراءات القرآن الكريم ـ د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي.

ذُكرَ فيها الإحضارُ في سورة الصافات إنّما عني به الإحضار في العذاب، فكذلك في هذا الموضع، وهو يعني ما في آية (٥٧)، يعني استدلّ بسياق السورة.

والظاهر أنّ مجاهدًا رحمه الله تعالى قد استدلّ بسياق قرآني من غير أن يذكر ذلك، وهو قوله تعالى في سورة يس: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾، و﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾، والتي بعدها ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ... ﴾؛ فهي قرينة على أنّ المراد الإحضار للحساب[1].

٢٧ ـ قال القرطبي: الصحيح في معنى قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ لَكُم ... ﴾ من آية (٢٩) البقرة: الاعتبار، ثم قال: يدلّ عليه ما قبله وما بعده: من نصب العبر: الإحياء والإماتة، والخلق، والاستواء إلى السماء وتسويتها؛ أي الذي قدر على إحيائكم وخلقكم وخلق السماوات والأرض لا تبعد منه القدرة على الإعادة[2].

٢٨ ـ قال الألوسي: هذه الآية: ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ... ﴾ (٢٩) الشورى: تدلّ بصريحها على وجود حيوانات في السماوات؛ لأنّ الدابّة لا تشمل الملائكة، لأنّه في آية أخرى قابل بين الدابّة والمَلَك: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ ... ﴾ الآية (٤٩) النحل، قال: ولا يبعد أن يكون في كل سماء مخلوقات على

---

(١) لم أذكر ذلك لمجاهد ترجيحًا لرأي على آخر، وإنّما قصدي في هذا المبحث ذكر نماذج احتجاجية سياقية، أمّا الترجيح فإنّني هنا أرجّح الإحضار للعذاب أوّلاً بسياق ما في السورة، وثانيًا بسياق قرآني ليت الطبري قد تنبّه له لصراحته وهو قوله تعالى في سورة الروم: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ آية (١٦)، كما أنّ الطبري أيضًا غفل عن قرينة بعد الآية مباشرة وهو الاستثناء ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾؛ فإنّ ذلك يدلّ على أنّ الإحضار للعذاب، لعدم استثناء المؤمنين من الإحضار للحساب.

(٢) تفسير القرطبي (ج١ / ص٢٥٢).

صور شتّى وأحوال مختلفة لا نعلمها[1].

٢٩ ـ البغوي: حول آية ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾: سمّي عيسى كلمة لأنّه كان بالكلمة من غير أب، وهي قوله تعالى: ﴿كُن﴾ في ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن ...﴾ الآية (٥٩) من آل عمران، وفي آية (٣٩) آل عمران كذلك: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ يعني عيسى عليه السلام وكان يحيى أوّل من آمن بعيسى وصدّقه.

وروحٌ منه: سمّي روحًا لأنّه حدث من نفخ الروح بواسطة جبريل كما في التحريم؛ ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾؛ أي من نفخ جبريل، إضافة إلى نفسه؛ لأنّه كان بأمره كما قال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ الآية (٧١) مريم[2].

٣٠ ـ أبو السعود حول الآية (٥٥) من سورة الإسراء: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾، بعد قوله ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾؛ قال: ذلك لبيان حيثية تفضيله عليه السلام، فإنّ صفاته الجليلة، وكونه خاتم النبيّين، مكتوبة في الزبور، ثم ربط هذه الآية بآية الأنبياء (١٠٥): ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ ...﴾ وقد ذكر أن العباد الصالحين هم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأمّته[3].

٣١ ـ الزرقاني: يُعرف السياق القرآني العام: إنّك تلاحظ آيات مكية منبثّة بين آيات مدنية وكذا العكس، وبرغم ذلك لا يكاد أحد يحسّ التفاوت أو التفكك والانقطاع، بل يَروعُكَ ما بين الجميع من جلال الوحدة وكمال الاتصال، وجمال

---

(١) ما دلّ عليه القرآن (ص١٢٣).

(٢) الرسالة (ص٣٧).

(٣) تفسير أبي السعود (ج٣/ ص٢٢١).

التناسق والانسجام، مما يجعل القرآن كلّه سلسلة واحدة محكمة متّصلة الحلقات أو قانونًا مترابط المبادىء والغايات[1].

٣٢ ـ لما استدلّ المعتزلة بآية النساء في القتل العمد ـ الآية (٩٣)، على أنّ الفاسق مخلّد في النار إذا لم يتب، أجاب العلماء عليهم بأجوبة منها: إنّ الآية دلّت على أنّ جزاء القاتل هو ما ذكر، وليس فيها ما يدلّ على أنّه سيوصل هذا الجزاء إليه، قال السايس بعد إيراد ذلك: وهذا ضعيف محتجاً بالسياق لأنّ الله تعالى ذكر في آيات أخر أنّه سيوصل جزاء عاملي السوء إليهم: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ...﴾ الآية (١٢٣) النساء، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[2].

٣٣ ـ الأصوليون يحتجّون بالاستقراء، والاستقراء هو تَتبُّع جميع المواضع التي تعرّضت لموضوع واحد في القرآن الكريم مع اتّحاد الموضوع في كل منها[3]، والاستقراء كما لا يخفى متّفق مع معنى السياق القرآني العام، ولو عُدّ مرادفًا له لما جانب الصواب[4].

٣٤ ـ الشيخ عطية في «التتمّة»[5] صرّح بذكر السياق القرآني حيث قال: أما معنى الآية فإنّ سياق القرآن يدلّ على أنّ مثل هذا السياق؛ أي: سياق الآية، ليس من باب الصفات كما في ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾، وقوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ في يونس، وقوله: ﴿نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الأنبياء الآية (٤٤)،

---

(١) مناهل العرفان (ج١ / ص٢٠٩).

(٢) انظر تفسير السايس (ج١).

(٣) والظاهر أنّ هذا هو المقصود الحقيقي بالتفسير الموضوعي.

(٤) الأضواء (ج٣ / ص٥، ٦).

(٥) هو من أكمل تفسير «أضواء البيان» بعد موت الشنقيطي رحمه الله.

قال ذلك تعليقًا على قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ...﴾ ثم قال: أتى هنا ليست من باب الصفات كما توهّم الرازي[1].

٣٥ ـ قال الشنقيطي وهو يتكلّم على الآية (٩٤) من طه: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي ...﴾؛ هذه الآية الكريمة بضميمة آية الأنعام (٩٠) ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾؛ تدلّ على لزوم إعفاء اللحية، فتكون بذلك دليلاً قرآنيًّا على هذا الحكم المختلف فيه إلى جانب ما في السنة، وذلك أنّه بعد أن عدّد الأنبياء، ومنهم هارون، قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، وأمره صلّى الله عليه السلام أمر لنا ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، وهارون كان موفرًا لحيته[2].

٣٦ ـ نقل الرافعي عن الجاحظ قوله: وقد ذكرت العرب هذه الأمم البائدة مثل عاد، وثمود، وطسم، وجديس... إلخ، وقالت العرب: ولبعضهم بقايا قليلة... ثم قال الرافعي: إنّما أثبتوا هذه البقايا لما جاء في القرآن عن ثمود من قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾، وقوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾، فأخذوا من ذلك أنّ غير ثمود لهم بقية في العرب، وغفلوا عمّا يعطيه لفظ الآية ويدلّ عليه السياق[3].

٣٧ ـ قال ابن عاشور: وإذ قد كان من مقاصد الإسلام: بثّ علومه وآدابه بين الأمّة، وتكوين جماعات قائمة بعلم الدين وتثقيف أذهان المسلمين كي تصلح سياسة الأمة على ما قصده الدين منها، من أجل ذلك عُقب التحريض على الجهاد بما يُبيّن أنّه

---

(١) التتمة (ج٨ / ص٣٢).

(٢) الأضواء (ج٤ / ص٥٥٠).

(٣) تاريخ آداب العرب (ج٣ / ص١٨).

ليس من المصلحة تحريض المسلمين كلّهم لأن يكونوا غزاة أو جندًا... إلخ[1]، وهو بهذا المعنى يعني أنّه حمل النفير في آية (١٢٢) التوبة على التفقّه في الدين وطلب العلم، معتمدًا على المعنى السياقي العام للقرآن، وهو مقاصد الإسلام، الذي جعلته داخلاً في معنى السياق القرآني العام.

٣٨ ـ قال الشيخ عطية: الصفات الثلاث في سورة الناس موجودة في الفاتحة؛ فاتّفقت الخاتمة مع الفاتحة في هذا المعنى العظيم، والقرآن كلّه فيما بين ذلك شرحٌ لتقرير هذا المعنى الكبير[2].

٣٩ ـ قال أبو بكر بن العربي: احتجّ بعض علمائنا من المالكية على تحريم الخمر بهذه الآية: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾؛ لأنّه في سورة الأعراف آية (٣٣): ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ﴾، حيث تناول التحريم الإثم، وكان الإثم من صفات الخمر فوجب تحريمها[3].

٤٠ ـ الدرجة في قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ...﴾ في سورة البقرة (٢٢٨)، قال السايس: هي التي جعلها الله للرجال على النساء في سورة النساء. وهو يعني؛ آية (٣٤): ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ...﴾[4].

٤١ ـ قال الشنقيطي: نبّه تعالى إلى أنّه ما من مُجْمَلٍ إلاّ وجاء تَفصيلُه في مكان آخر، وذلك في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، قال: وقد نصّ الله تعالى على هذا في كثير

---

(١) التحرير والتنوير (ج١٠ / ص٥٩).

(٢) التتمة (ج٩ / ص٦٦٨).

(٣) أحكام القرآن (ج١ / ص١٥٠).

(٤) تفسير الأحكام / القسم الأول (ص١٤٠).

من الآيات كما في: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ...﴾[1].

٤٢ ـ قال الزرقاني: أحسن طرق التفسير ومراتبه: أن يُفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يُجمع ما تكرّر في مواضع منه وينظر فيه... وقد قالوا: إنّ القرآن يفسّر بعضه بعضًا، وإنّ أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ: موافقته لما سبق له من القول، واتّفاقه مع جملة المعنى، ومع القصد الذي جاء له الكتاب في جملته[2].

٤٣ ـ الشنقيطي ذكر أنّ القرآن استعمل لفظ الأمّة في أربعة معاني:

أ ـ الجماعة من الناس؛ وهو الاستعمال الغالب ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾.

ب ـ البرهة من الزمن ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾.

ج ـ الرجل المقتدى به ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾.

د ـ الشريعة والطريقة ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾[3].

٤٤ ـ ابن عطيّة الأندلسي ـ ووجه التحدي والإعجاز في القرآن ـ: وجه التحدي في القرآن إنّما هو بنظمه وصحّة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه: أنّ الله قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحاط بالكلام كلّه علمًا، فعلم بإحاطته: أيّة لفظة تصلح أن تَلِي الأولى وتُبيّن المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أوّل القرآن إلى آخره[4].

وهذا الجزء الأخير من كلامه ظاهر في معنى السياق القرآني العام بل هو شامل لجميع أنواع السياق الأربعة؛ حيث أنّ المقدار المشترك بينها هو التسلسل والاتصال

---

(١) الأضواء (ج٨ / ص٦٤٠).

(٢) المناهل (ج١ / ص٥٢٠).

(٣) المناهل (ص٤٢).

(٤) تفسير القرطبي (ج١ / ص٧٦).

لفظًا ومعنى.

٤٥ ـ الشنقيطي حول آية ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ في سورة العاديات: رجّح عود الضمير في «إنّه» إلى الإنسان؛ مستدلاً بقوله ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[1].

٤٦ ـ احتجاجات سياقية في قضايا لغوية؛ ومن ذلك:

أ ـ قول محمد بن مسعود الزكي في كتابه «البديع» ـ وهو كتاب خالف فيه أقوال النحويين في أمور كثيرة ـ: إنّ الذي وأنْ المصدرية يتعارضان.

فتقع الذي مصدرية وقد قال بذلك يونس والفرّاء والفارسي وارتضاه ابن خروف وابن مالك، وجعلوا منه: ذلك الذي يبشّر الله عباده و﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ﴾[2].

ب ـ في مبحث إنْ النافية، وقول بعضهم لا تأتي إن النافية إلاّ وبعدها «إلاّ» أو «لمّا» المشدّدة التي بمعناها كقراءة بعض السبعة: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾، قال ابن هشام: هذا القول مردود بقوله تعالى: ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ﴾، وقوله: ﴿ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾، و﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ﴾[3].

ج ـ تقع الجملة مفعولاً في ثلاث أبواب:

الأوّل: باب الحكاية بالقول أو مرادفه، والمرادف نوعان؛ أحدهما: ما ليس معه

---

(١) وأنا أرى ما رآه الشنقيطي لأنّه معطوف على الذي قبله، وفيما رآه القرطبي من عوده لله تعالى تفكيك للضمائر.

(٢) المغني (ج٢ / ص٥٤٧).

(٣) (ج١ / ص٢٣).

حرف تفسير نحو ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ... ﴾ فهذه[1] في محل نصب اتّفاقًا، ثم قال البصريون: النصب بقولٍ مُقَدَّر، ويشهد لهم التصريح بالقول في نحو: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾[2].

د ـ من أقسام الواو: واو الثمانية، زاعمين أنّ العرب إذا عدّوا قالوا: ستة، سبعة، وثمانية؛ إيذانًا بأنّ السبعة عدد تام، وأنّ ما بعدها عَددٌ مُستأنَف، واستدلّوا على ذلك بآيات منها:

١ـ آية الكهف ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ... ﴾.

٢ـ وآية الزمر؛ فقد قيل فتحت في آية النار وفتحت (بالواو) في آية الجنة؛ لأنّ أبوابها ثمانية.

٣ـ وآية التوبة ﴿ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾؛ فإنّه الوصف الثامن في الآية (١١٢).

٤ـ وآية التحريم ﴿ وَأَبْكَارًا ... ﴾ في آية (٥).

ذكر ذلك القاضي الفاضل، وقد سبقه إلى ذكر ذلك الثعلبي؛ ولم يقبل ذلك ابن هشام[3]، ومعلوم أنّ مقصدنا: بيان كيفية الاحتجاج بالسياق القرآني في تقرير قاعدة لغوية حتى ولو لم يكن ذلك موضع اتّفاق بين أئمّة اللغة.

هـ ـ حكى الفرّاء عن بعض القدماء: أنّ الجملة القَسَمية لا تكون صلة، وردّه

---

(١) إشارة إلى قوله في الآية ﴿ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا ... ﴾.

(٢) المغني (ج٢ / ص٤١٢، ٤١٣).

(٣) المغني (ج٢ / ص٣٦٢ـ ٣٦٤).

بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ من آية (٧٢) النساء، فجملة (يبطّئنّ) قَسَمية، وهي صِلةٌ لمن[1].

و ـ قال في «المغني»: الجهة السابعة؛ أي من الجهات التي يدخل الاعتراض على المُعرب من جهتها: أن يحمل كلامًا على شيء ويشهد استعمالٌ آخر في نظير ذلك الموضع بخلافه، وله أمثلة:

١ ـ قول الزمخشري في (مخرج الميت) في آية (٩٥) من سورة الأنعام: إنّه عطف على (فالق)، ولم يجعله معطوفًا على (يخرج) لأنّ عطفَ الاسم على الاسم أولى، ولكن مجيء (يخرج الحي... ومخرج الميت) في آية يونس (٣١)، بالفعل فيهما يدلّ على خلاف ذلك.

٢ ـ قول مكّي وغيره في ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ في آية (٢٦) البقرة: إنّ جملة يضل؛ صفة لقوله مثلاً، أو مستأنفة، والصواب الثاني لقوله في المدثر: ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ... ﴾ آية (٣١).

٣ ـ قول بعضهم في ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ﴾: إنّ الوقف هنا على ﴿ رَيْبَ ﴾، ويبتدئ: ﴿ فِيهِ هُدًى ﴾، ويدلّ على خلاف ذلك: قوله في السجدة ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾.

٤ ـ قول بعضهم في ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ... ﴾ من آية (٤٣) الشورى إن الرابط: الإشارة ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ في الآية، وإن الصابر والغافر جُعلا من عزم الأمور مبالغة، والصواب أن الإشارة للصبر والغفران بدليل ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾، ولم يقل إنّكم؛ الآية (١٨٦) من آل عمران.

---

(١) المغني (ج٢ / ص٦٢٦، ٦٢٧).

٥ ـ قولهم في ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من الآية (٦٢) القصص: إن التقدير: تزعمونهم شركاء، الأولى أن يقدر: تزعمون أنّهم شركاء بدليل: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ...﴾ الآية (٩٤) الأنعام، ولأنّ الغالب على (زعم) أن لا يقع على المفعولين صريحًا، بل على أنّ وصِلَتِها، ولم يقع في التنزيل إلاّ كذلك.

٦ ـ ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في يس: أن (لا يؤمنون) مستأنف أو خبر لإنَّ في ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾، وما بينهما اعتراض، والأولى: الأوّل، بدليل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ ...﴾ في البقرة، فإن قوله ﴿سواء... أم لم...﴾ خبر إن، ثم استأنف ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٧ ـ قولهم في نحو: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ...﴾ وفي ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: إنّ المجرور في موضع نصب أو رفع على الحجازية والتميمية، والصواب الأوّل؛ أي: النصب لأنّ الخبر بعد (ما) لم يجئ في التنزيل مجرّدًا من الباء إلاّ وهو منصوب مثل: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ و﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾.

٨ ـ قول بعضهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ...﴾ من سورة الزخرف: إنّ اسم الله مبتدأ أو فاعل؛ أي الله خلقهم، أو خلقهم الله، والصواب الثاني بدليل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ...﴾ إلخ الآية (٩) من الزخرف.

٩ ـ قول أبي البقاء في ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ ...﴾ الآية (١٠٩) من التوبة: إنّ الظرف حال؛ أي على قصد (تقوى) أو مفعول (أسس)، وهذا الوجه هو المعتمد

عليه عند (ابن هشام)؛ لِـتَـعيُّـنِه في ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

ثم قال ابن هشام: وقد يحتمل الموضع أكثر من وجه، ويوجد ما يُرجّح كلاً منها، فينظر في الأولى منها، مثل: ﴿فَٱجْعَل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ...﴾ الآية (٥٨) طه؛ فإنّ الموعد محتمل للمصدر؛ ويشهد له ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾، وللزمان؛ ويشهد له ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾، وللمكان؛ ويشهد له ﴿مَكَانًا سُوًى﴾، وإذا أعرب مكانًا بدلاً منه، لا ظرفًا لـ ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ تعيّن ذلك.

١٠ ـ ويُضاف إلى التسعة السابقة: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ...﴾ الآية (١٠١) الأعراف؛ فإنّه يحتمل أن يكون الأصل ﴿بما كذّبوه﴾ أو ﴿بما كذبوا به﴾، ويؤيّده التصريح به في سورة يونس الآية (٧٤).

١١ ـ ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾؛ قيل فيها: إنّ الواو تحتمل العاطفة والقسمية، والصواب الأوّل؛ وإلاّ لاحتاج لجواب، وممّا يوضّحه مجيء الفاء في أوائل سورتي المرسلات والنازعات[1].

٤٧ ـ قال الشربيني بخصوص آية يس: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ ...﴾ فيه وجوه أشهرها: إنّ المراد بالقول هو قوله تعالى ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ ...﴾ أو قوله تعالى في السجدة آية (١٣): ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ فهو قد رجّح هذا القول بالسياق القرآني العام[2].

---

(١) انظر المغني (ج٢ / ص٥٩٣ ـ ٥٩٥، ٥٦٦، ٥٦٩).

(٢) تفسير الشربيني (ج٣ / ص٣٣٨).

٤٨ ـ قال القاسمي: إنّ من المخصصات محاكاة النظائر؛ أي وجود تشابه بينه وبين ما في آيات أخرى من القرآن، وقال: أوضح المخصصات: ما عَضَدهُ دليلٌ أو أيّدته قرينة أو حاكى نظائره، فأقواها الدليل ثم القرينة ثم محاكاة النظائر[1].

وأقول: إنّ الإحالات القرآنية كالدليل، والتكامل السياقي قرينة، والتشابه هو محاكاة النظائر، ولذا ذكرتها في مراتب الحُجِّيةِ القرآنية وفق هذا الترتيب، حيث بدأت بالإحالات، ثم ثَنَّيتُ بالتكامل، ثم ثلّثت بالتشابه.

٤٩ ـ قال د. عبد الجليل عبد الرحيم ـ أستاذ التفسير في الجامعة الأردنية ـ: "لا يكفي في التفسير الموضوعي أن يعمد الباحث في مفردات الموضوع أو الكلمات القرآنية، إلى معاجم اللغة أو بعض كتب التفسير ليثبت المعنى اللغوي والاصطلاحي والمدلول الشرعي، وإن كان ضروريًّا للتفسير؛ بل لا بدّ له بالإضافة إلى ذلك من أن يرجع إلى القرآن ليستقصي فيه مواطن الاستعمال للمفردة القرآنية". ـ التفسير الموضوعي في كفة الميزان (ص٢٠٩، ٢١٠) ـ.

٥٠ ـ الأصمعي والأعرابي: في آية (٤٠) من سورة المائدة، قدّم ذكر العذاب على ذكر المغفرة؛ خلافًا للعادة القرآنية الغالبة عن الجمع بينهما سواء في آية واحدة، أو في آيتين، والسرُّ في ذلك أنّ ما سبقَ الآيةَ كان في قطعِ يد السارق، وهذا لا يناسبه تقديمُ المغفرة.

ويذكرنا ذلك بحكاية الأصمعي مع الأعرابي: حين سمع الأعرابي يقرأ آية السرقة وينهيها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فأنكر أن يكون ذلك من كلام الله!! فلمّا أعاد القراءة وصحّح التذييل ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، قال الأعرابي: هذا كلام الله. فسأله

---

(١) محاسن التأويل (ج٧/ ص١٤١).

الأصمعي إنْ كان يحفظُ القرآن، فنفى ذلك، ذاكرًا أن سياق المعنى هو الذي دلّه على الغلط والصواب، ولولا ذلك التناسب بين النظم والمعنى ما قال أحد أساطين العربية الجاهليين الوليد بن المغيرة في وصف القرآن: إنّ له لحلاوة... وإنّ أعلاه مثمر وأسفله مغدق... إلخ ما ذكره.

وهذه الواقعة بين الأصمعي والأعرابي تشبه الواقعة بين عمر والأعرابي حول عبارة: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ في أوائل التوبة، حين جَرَّ القارئُ اللامَ من كلمة (رسوله) فأفسد المعنى وقلبه رأسًا على عقب، ممّا جعل عمر رضي الله عنه يصدر أمرًا بأن لا يُقرئَ القرآنَ إلاّ عالمٌ بالعربية ـ وفي رواية أن لا يقرأ القرآن ـ انظر السراج المنير (ج١ / ص٥٨٩).

٥١ ـ في شذور الذهب (ص٧) أورد ابن هشام الآية ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ من الآية (٤٤) من سورة طه، ثم قال: والقول الليّن قد جاء مفسّرًا في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ من الآيتين (١٨، ١٩) من سورة النازعات.

٥٢ ـ في الكواكب (ج٢ / ص٣١): ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ قال: الخطابُ لآدم وحواء، بدليل ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾، وجمع ضميرهما في هذه الآية لأنّهما أصلا البشر فكأنّهما جميع الجنس. وصحّحه الزمخشري.

٥٣ ـ رجّح الشنقيطي في معنى (لعلّ): النهي عن الحزن في قوله تعالى ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾، ثم قال: وإطلاق (لعلّ) مُضَمَّنة معنى النهي في مثل هذه الآية أسلوب عربي يدلّ عليه سياق الكلام، ومن الأدلّة على أنّ المراد بها النهي كثرة ورود النهي صريحًا عن ذلك، مثل: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ ـ الأضواء (ج٤ / ص١٥).

كما رجّح في توجيه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت ...﴾ أنّهم كانوا في فجوة من الكهف على سَمْتٍ تُصيبه الشمس وتقابله، إلاّ أنّ الله منع ضوء الشمس من الوقوع عليهم على وجهِ خرقِ العادةِ كرامةً لهم، وذلك بقرينة قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إذ لو كانوا في زاوية منه، وبينهم وبين الشمس حواجز طبيعية من نفس الكهف يقيهم حر الشمس عند الطلوع وعند الغروب، لكان ذلك أمرًا معتادًا ولا غرابة فيه حتى يقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ثم بنى على هذا الترجيح معنى ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ بقوله: إنّ الله يُقلّص ضوءها عنهم ويُبعده إلى جهة اليمين عند الطلوع وإلى جهة الشمال عند الغروب ـ الأضواء (ج٤ / ص٣٧)[1].

٥٤ ـ أورد الخطيب الشربيني في معنى (المستقرّ) في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، عن ابن مسعود: إنّه المصير والمرجع، مستدلاً بقوله تعالى في آيات أخر: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰ﴾، وعن السُدّي إنّه المنتهى، ونظيره: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾؛ أي أنّ كلاً منهما استدلّ بسياق قرآني ـ (ج٤ / ص٤٤١) ـ.

٥٥ ـ النيسابوري في ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾؛ قال المراد: المسمّيات بدلالة ما بعده: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ ...﴾ فهذا تفسير بدلالة سياق الآية نفسها[2] ـ «إيجاز البيان عن معاني القرآن» لمحمود النيسابوري (ص٨٧).

٥٦ ـ اقرأ ما قاله محمد عزة دروزة في كتابه (القرآن والملحدون) في الفصل الثالث.

---

(١) ونذكر ههنا أن الشنقيطي هو أكثر من اعتمد في التفسير على دلالة السياق القرآني، بل هذا هو منهجه حيث سمّى تفسيره: تفسير القرآن بالقرآن، وذلك بعد ابن كثير.

(٢) ولا شكّ أنّ لهذه الكلمات دلالتها الخاصة أوّلها دورها الملموس في تحديد طبيعة السورة وإبراز نظامها.

٥٧ ـ في إمعان النظر (ص٢١٤): لما اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة وأرادوا أن يختاروا أميرًا منهم، ومما قالوه في الاجتماع: منّا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش، وكثر اللغط واحتدّ النقاش، فقام أبو بكر وخطب وقال فيما قال: أيها الناس نحن المهاجرون أوّل الناس إسلامًا، أسلمنا قبلكم وقُدِّمنا في القرآن عليكم ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ...﴾ التوبة (١٠٠)؛ فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار... فاستنبط أبو بكر أولويةَ المهاجرين وأحقّيتهم بالإمارة من نظم القرآن، فاقتنعوا وانحسم الخلاف، واجتمع الناس عليه[1].

٥٨ ـ في إمعان النظر (٢٦٥):

ـ عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنّه قال: الدعاء هو العبادة ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ...﴾، عن الترمذي رقم (٣٢٤٤) في التفسير باب من سورة المؤمنون: فهذه الرواية صرّحت أنّه ﷺ استنبط هذا المعنى من نظم الآية.

ـ قال عناية الله: وهكذا كان دأبه ﷺ فإنّه كان أحيانًا ينبّه إلى مستدلّه من كتاب الله، وأخرى يتركه ويَكِلُه إلى فهم الفاهمين.

ـ قال في إمعان النظر (ص٣٠١): فإذا قرأت القرآن... وجدت فيه أنواعًا من السور، لكل نوع منها طعم خاص ولون خاص وأريج خاص؛ فالسور التي تعرف بـ (آل حم) أو (ذوات حم) لها ما يميّزها عن أخواتها من السور والمسبّحات لها ما لا يوجد في غيرها، وهكذا الطائفة التي تبتدئ بسورة ق وتنتهي بالواقعة لها ما لا يوجد في

---

(١) كتاب «إمعان النظر في نظام الآي والسور» للدكتور محمد عناية الله سبحاني، طبع دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

غيرها وعلى هذا القياس فإذا مررنا على طائفة من السور ووجدنا لها لونًا خاصًا فلنكن واثقين بأنّ هناك وشائج تربط بعضها ببعض وأنّ لها ميزة خاصة تميزها عن غيرها. فَلنُطِلْ هناك الوقوف ولنمعن فيها النظر فسينكشف لنا من رباطها ونظامها ما تَقرُّ به العين ـ ص٣٠٢ ـ ومن تلك المعالم التي تقود إلى النظام: تكرار كلمات خاصة في السور، فإن من دأب القرآن أنّه يراعي الدقة في اختيار الكلمات فإذا وقع اختياره على كلمة خاصة لمكان معين ورددها مرة بعد أخرى فهذا يدل على أنَّ لها صلةً خاصة أو مناسبة خاصة بذلك المكان، وهذا يساعدنا على فهم طبيعة السور وجَوِّها، وعلى التماسِ المناسبة بين آياتها، وذكر آيات الكهف (٦٦ ـ ٧٨)، ثم قال (ص٣٠٣): فتلك سبع عشرة آية تكررت فيها كلمة الصبر ٧ مرات، أليس هذا الوضع يلون الجو بلون الصبر ويوحي إلى القارئ أنّ تلك الآيات ما جاءت إلاّ لتعليم الصبر وتركيزه في النفس، فإنّ الإنسان خُلقَ عجولاً ويشق عليه أن يصبر حتى يأتي أمر الله.

ثم قال: ثم نمضي خطوة أخرى... مع مضامين السورة فنجدها ترمي إلى تبشير المؤمنين وحثهم على الصبر إلى أن يأتي وعد الله، ونرى تلك السورة تتلخص في ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (٥٨، ٥٩)، فترى التأمّل في ترجيع كلمة الصبر كيف عرج بنا إلى غاية السورة وهدفها، ومهد لنا الطريق إلى نظام آياتها ورباط معانيها، وهكذا الأمر في ترجيع كلمة النصح في الأعراف، أو ترجيع كلمة الاستفزاز في الإسراء، أو التسبيح في المسبحات، أو كلمة الإسلام في آل عمران....

٥٩ ـ قال أبو بكر بن العربي: قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ... ﴾ الآية (٥) من التوبة، نسخت الآية (١٢٤)، ثم نسخ آخرها أوّلها؛ مشيرًا بذلك إلى قوله تعالى

في آخرها ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ...﴾ وهذا ليس نسخًا وإنّما قاله تجوزًا من باب المشاكلة[1].

٦٠ ـ أورد ابن كثير ثلاث آيات من مواضع مختلفة في القرآن ثم قال: فهذه الآيات الثلاث في الأعراف والمؤمنون وحم السجدة (فصلت) لا رابع لهن، فإنّه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف وبالتي هي أحسن، فإنّ ذلك يَكُفُّه عمّا هو فيه من التمرّد بإذنه تعالى[2]؛ والآيات الثلاث هي:

أ ـ ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ...﴾ (٩٦ ـ ٩٨) من المؤمنون.

ب ـ آية (٣٤) من فصلت ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ...﴾.

ج ـ ثم آية الأعراف (٢٠٠) ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ...﴾.

أقول: لِـمَ قال: لا رابعَ لهنّ؟ مع وجود آية في فصلت تشبه آية الأعراف لفظًا ومعنى، وهي آية (٣٦)، ولعلّه رآها متّصلة بآية (٣٤)، فاستغنى بذكرها عن ذكرها. والأولى أن يقال: الآيات (٣٤ ـ ٣٦) من سورة فصلت. ثم إنّني لا أجد مبررًا لقوله لا رابع لها؛ إذ أنّنا كما ذكرنا آية فصلت (٣٦) والتي هي كآية الأعراف يمكن أيضًا أن نذكر آيات في سورة الشورى كآية (٣٧)، وآية (٤٠)، ثم آية (٤٣) ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، وآية الفرقان ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾، ومثلها آية القصص.

٦١ ـ عمر رضي الله عنه استنبط عمر النبي ﷺ ٦٣ سنة من قوله تعالى: ﴿وَلَن

---

(١) الإتقان (ج٢ / ص٢٤).

(٢) تفسير ابن كثير (ج٢ / ص٢٧٨).

﴿يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ...﴾ آية (١١) من سورة المنافقون؛ فإنّها رأس (٦٣) سورة من القرآن[1]؛ وأضيف إلى ذلك ما في آية (٦٣) من سورة النور، والتي تتضمّن قرينةً على ذلك في موضوعها من جهة، وفي مجيئها في آخر السورة من جهة أخرى.

٦٢ ـ قال مجاهد: لو أعلم أحدًا يفسّر هذه الآية ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ...﴾ (٢٤) النساء، لضربتُ إليه أكباد الإبل، قال ابن العربي: وذلك لا يدريه إلاّ من ابتُلِيَ بالقرآن ومعانيه، وتصدّى لضم منتشر الكلام وترتيب وصفه، وحفظ معناه من لفظه[2].

٦٣ ـ قال ابن عيينة رحمه الله تعالى: ما سمّى الله مطرًا في القرآن إلاّ عذابًا، وتسمّيه العرب الغيث، وهو قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [3].

٦٤ ـ قال قتادة فيما رواه عنه ابن أبي حاتم: علّمكم الله كيف تقولون إذا ركبتم وإذا نزلتم، وقرأ هذه الآية: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى ...﴾ من سورة المؤمنون الآية (٢٩)، والآية (١٣) من سورة الزخرف: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟﴾، وآية (٤١) من سورة هود: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [4].

***

(١) الإتقان (ج٢ / ص١٢٦).

(٢) الإحكام لأبي بكر (ج١ / ص٣٨١).

(٣) صحيح البخاري (ج٦ / ص٧٨).

(٤) الإكليل للسيوطي (ص١٨٦).

الخاتمة

ليس ما ذكرته من هذه الأدلّة والنماذج حاصرًا لكلّ ما هو موجود كما بيّنت ذلك عند الحديث عن كل موضوع منها وبخاصّة موضوع التشابه وموضوع الرواية؛ إذ يمكن بمزيد من تتبّع المظانّ العثور على مزيد من هذه النماذج سواء عن الرسول ﷺ، أو عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ولكنّي رأيت أنّ الأمر ليس بكثرة الأدلّة حين يكون بعضها مغنيًا عن بقيّتها، وكما ذكرت في موضوع التشابه من أنّ موضوع التشابه قد تربو على الخمسمئة موضع؛ إلاّ أنّني قد اقتصرت على ذكر خمسين منها مراعيًا في اختيار هذه الخمسين الأشمل والأكثر فائدة والأدلّ على الحجيّة للسياق، كما راعيت التنوّع في حيثيّة التشابه (تكاملاً وإيضاحًا وتفصيلاً لمجمل...) إلخ، أمّا في جانب الرواية وبخاصة عمّن بعد الصحابة؛ فالقليلُ يُغني عن الكثير، والاستيعاب غير مطلوب ـ رغم الفائدة ـ لا سيّما وأنّ النماذج المذكورة قد شملت مراحل تاريخيّة متنوّعة من عصر ما بعد الصحابة إلى اليوم؛ مع العلم بأنّ ذكر هذه الروايات إنّما هو لمجرّد الاستئناس، إذ أنّ نماذج الإحالات والتشابه والتكامل وما روي عن النبيّ ﷺ والصحابة يكفي بل ويزيد في إثبات حجيّة ومشروعية الدلالة السياقية القرآنية.

هذا؛ وإنّني حين رأيت أنّ التكامل السياقي من بين هذه الأدلّة والشواهد يحقّق مقصدًا آخر غير الدلالة، وهو كونه نوعًا ومنهجًا تفسيريًّا سياقيًّا، لذا أكثرت من ذكر أمثلته، فوجدتها قد أخذت حجمًا كبيرًا سيطغى على عنوان هذا الكتاب ويحجب القصد منه عن القارئ؛ فأفردته بكتاب خاص من هذه السلسلة، والذي سيكون ترتيبه

مباشرًا بعد هذه الحلقة لكونه منها ومكمّلاً لها.

وأخيرًا؛ أحمد الله العلي القدير أن وفّق وألهم لجمع شتات هذا الموضوع الهام، راجيًا منه سبحانه أن يكمل فضله بقضاء القبول له في الأرض وفي السماء؛ في الأرض إقبالاً عليه وتقديرًا له، وفي السماء أجرًا وصدقة جارية بعد مغادرة الروح إلى بارئها.

***

المراجع

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ أضواء البيان — الشنقيطي

٣ ـ تفسير ابن كثير — ابن كثير

٤ ـ تفسير القرطبي — القرطبي

٥ ـ تفسير أبي السعود — أبو السعود

٦ ـ تفسير السراج المنير — الشربيني

٧ ـ تفسير النسفي — النسفي

٨ ـ الرسالة — الشافعي

٩ ـ تفسير السايس — السايس

١٠ ـ الجمان في علوم القرآن — د. محيي الدين عبد الحميد

١١ ـ دلائل النظام — عبد الحميد الفراهي

١٢ ـ صحيح مسلم — الإمام مسلم

١٣ ـ مناهل العرفان — الزرقاني

١٤ ـ تفسير الدر المنثور — السيوطي

١٥ـ	الإكليل	السيوطي
١٦ـ	تحفة الأحوذي	
١٧ـ	صحيح البخاري	الإمام البخاري
١٨ـ	تفسير أحكام القرآن	ابن العربي
١٩ـ	زبدة التفسير	د. محمد سليمان الأشقر
٢٠ـ	صفوة التفاسير	الصابوني
٢١ـ	رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين	د. عبد الفتاح شلبي
٢٢ـ	آية الكرسي	السيوطي
٢٣ـ	تفسير مجمع البيان	الطبرسي
٢٤ـ	أحكام القرآن	الشافعي
٢٥ـ	شعب الإيمان	البيهقي
٢٦ـ	تفسير الطبري	الطبري
٢٧ـ	حلية الأولياء	الأصفهاني
٢٨ـ	التذكرة	القرطبي
٢٩ـ	تفسير الكيا الهراسي لأحكام القرآن	الهراسي
٣٠ـ	تجارب ومواقف	المؤلف
٣١ـ	دقائق التفسير	ابن تيمية
٣٢ـ	المقدمة	ابن خلدون

٣٣ـ	إيجاز البيان	النيسابوري
٣٤ـ	ما دلّ عليه القرآن	الألوسي
٣٥ـ	تاريخ آداب العرب	الرافعي
٣٦ـ	التحرير والتنوير	ابن عاشور
٣٧ـ	مغني اللبيب	ابن هشام الأنصاري
٣٨ـ	محاسن التأويل	القاسمي
٣٩ـ	تقريب التهذيب	ابن حجر
٤٠ـ	الإتقان في علوم القرآن	السيوطي

***

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٥
المقدمة	٩
الفصل الأول: الإحالات القرآنية السياقية	١٣
الفصل الثاني: التشابه السياقي	٥٥
الفصل الثالث: دلالة الرواية	١٠٩
أولاً: الرواية عن النبي ﷺ	١٠٩
ثانياً: الرواية عن الصحابة	١١٥
ثالثاً: الرواية عمن بعد عصر الصحابة	١٣٣
الخاتمة	١٥٩
المراجع	١٦١
فهرس المحتويات	١٦٥

* * *

التنضيد الإلكتروني والإخراج الفني
قسم الكمبيوتر في / دار الحسن للنشر والتوزيع
هاتف ٤٦٤٨٩٧٥ ـ فاكس ٤٦٤٨٩٧٥ ـ عمان ١١١١٨ ـ الأردن